

الملهاة الفلسطينية

إبراهيم نصر الله

أعراس آمنة

رواية

الطبعة الرابعة

الملهاة الفلسطينية

IBRAHIM NASRALLAH

SAFE WEDDINGS

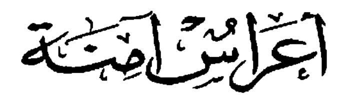
إبراهيم نصرالله

أعراس آمنة

الذي يجبرنا على أن نـزغرد في جنازات شهدائنا هو ذلك الذي قتلهم
نزغرد حتى لا نجعله يحسَّ لحظة أنه هزمنا
وإنْ عشنا، سأذكِّرُكِ أننا سنبكي كثيرًا بعد أن نتحرّر



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L


أعراس آمنة



الطبعة الثانية: 1430 هـ - 2009 م
الطبعة الثالثة: 1432 هـ - 2011 م
الطبعة الرابعة: 1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-9953-87-625-2



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لوحة الغلاف: تفصيل من لوحة الفنان فاتح المدرّس
تصميم الغلاف: الفنان محمد نصرالله

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

كانت واحدة من الليالي الثقيلة،

لا أستطيع وصْفها بأقلّ من ذلك..

خَطَرَ لي أن أقوم بكتابة تحقيق صحفي عنوانه (من يستطيع النوم؟) ولكنني لم أفعل، فقد كان يكفي أن أقوم بكتابة هواجسي الليليّة، يومًا بعد يوم، لأدركَ ما الذي يحدث في "غزّة".

كانت واحدة من الليالي الثقيلة..

لستُ أدري في أيِّ وقت استطعتُ إغلاق عينيّ، رغم أنني بتُّ أشكُّ تمامًا، فيما إذا كنتُ أغلقهما أصلًا حينما أنام.

من يستطيعُ النّوم؟

كانت الدَّقاتُ على الباب كافية لأن توقظني.

كلُّ شيء يختلطُ في هذا الرأس الصغير، الذي طالما وصفته أمي تحببًا: "انظروا، صاحبة الرأس الصغير، وأختها، في الواحدة منهما عقلٌ أكثر مما في رؤوسكم مجتمعين. لو أن الله لم يرزقني سوى البنات، لكنتُ أسعدَ أهلِ غزة".

كان ذلك يسرُّني، ويُزعجني.

من السيئ أن تملك رأسًا صغيرًا في وطن ليسَ فيه سوى الهراوات الكبيرة وفوهات البنادق المتطلِّعة إليك.

لكنني حسمتُ الأمر في النهاية لصالح رأسي. نعم حسمته لصالح هذا الصِّغر، واتخذتُ ما يكفي من الاحتياطات الملائمة لحجمه، عكس توأمي وشبيهتي..

ابتعدتُ عن مدى الهراوات ما أمكن، لأنني كنتُ علي يقين من أن ضربةً واحدة تكفي لتهشيمه، وقلتُ: لن يكون بإمكان القنّاصين إصابته وهو بهذا الحجم، مع أن الأيام ستثبتُ أنني كنتُ مخطئة في هذا!

كانت تلك الأحاسيس تنتابني في الانتفاضة الأولى، أما الآن، فلا أعرف تمامًا، إن كنتُ ما زلت أفكِّرُ بالطريقة نفسها أم أنني أتذكّر تلك الطريقة التي كنتُ أفكر بها!

زمنٌ طويل من القصف: قنابل وصواريخ، دبابات وطائرات مروحيّة، وحتى مُقاتلة، كان يكفي لزعزعة عبارات السَّمعِ لديّ، مع أن كثيرين صاروا يتباهونَ -كما في كلّ حرب- بدقَّتهم في تحديد أنواع الأسلحة، لكنني لم أكن منهم، وظلَّ هذا الأمر هو الأكثر قدرةً على إثارة دهشتي، فمَن يستطيع أن يُفرِّق بين طَرَقاتٍ قويّة على باب، وبين أصوات القنابل في إغفاءة عَثَرَ عليها بأعجوبة في نهايات الليل.

- رجعوا يقصفوا، أم أن هناك من يطْرق الباب؟ سألتْ أمي، وقد أثبتتْ أن خبرتَها لا تقلُّ عن خبرتي!!

نهضتُ؛ أعرفُ أن أحدًا لن يفعل ذلك سواي، وليس هناك الآن سوى جدتي في الغرفة التي (ترتاح فيها) لأن صوت الرصاص لا يبلغها تمامًا، كما تردّد دائمًا.

- صباح الخير.

- صباح النُّور.

- أمّكِ موجودة؟

- موجودة.

- وأبوكِ؟

- أبي! أنتِ تعرفين، في السِّجن.

- نسيتُ، يلعن الشيطان؟

- الاحتلال؟!

- أظنُّ، في غيره؟!

- تفضلي!

- لا. قبلَ أن أتفضَّل، أريد أن أطلبَ منك طلبًا واحدًا، فأنتِ مثل ابنتي. وصمتتْ. كنتُ أحلم دائمًا أن تكون لي ابنة مثلكِ، أو مثل أختكِ، ولكن إن ساعدتني، سيكون لي بنت!!

- ماذا تقصدين؟

- ستكون أختكِ ابنتي!!

- ومن قال إنها ليست ابنتكِ؟!

- ابني كِبر، كبر بما فيه الكفاية، وأختكِ صبية ما شاء الله، تملي العين، مثلكِ! وكما ترين، الدّنيا بين الحياة والموت، وقد فكَّرتُ بأن هذا الوقت هو الأنسب لأزوِّجه، وأريدك أن تُقنعي أمّكِ. صحيح أن وجود أبيكِ في السّجن يجعل الأمرَ غير مناسب في نظرِ بعض الناس، لكن ذلك لا بدَّ منه، فلو انتظرنا حتى تتحسّن أحوالنا ويرحل الاحتلال، وتتحرر فلسطين، ويعود جزؤها الذي احتلوه قبل هذا الجزء، لكان الأمر مصيبة، ولا أحد تزوَّج، ولا أحد خَلَّف.

كان طلبها كافيًا لعقد لساني تمامًا، فوجدتُ نفسي أَشبه بخشبة تستند بوهنٍ إلى حلْق الباب؛ وبعد زمن، أظن أنها قالتْ فيه الكثير، وجدتُ نفسي أهزُّ رأسي دون أن أُدرك معنى ما أفعله، لكنها فهمت هزّة رأسي كما تشتهي.

خطتِ الخطوتين اللتين تفصلاننا، وطبَعَتْ قبلةً على جبيني.

- لقد قلتُ، ليس لي غيركِ، وصَدَقَ قلبي.

وفجأة استدارتْ تهمُّ بالذهاب.

امتدتْ يدي. أدركتْها قبل أن تبتعد. التفتتْ إليَّ وكانت يدي تقبض على طرف ثوبها الأسود الطويل.

- أدخلي؛ نشربُ الشاي معًا على الأقل، ونفطر. قلتُ لها.

- لا، لا. الشّاي، نشربُه بعدين. ولستُ جائعة، الآن سأمرُّ على البيتِ آخذ بعض الأشياء التي أحتاجها، ثم أذهبُ لأُطمئِنَهُ. تعرفين، الولد يحبّها منذ زمن طويل، وكنت أنتظرُ اليوم الذي يكبرُ فيه. أعرف أنها أكبر منه قليلًا، لكنه استطاع أن يكبر ليلحق بها، هل رأيتِ أحدًا يحبُّ إلى هذا الحدّ. اليوم عيد ميلاده، لماذا لا تأتين؟ رائحتكِ من رائحتها. سأقيم حفلًا صغيرًا.

وأخذها صمتها بعيدًا.

واصلتُ النظرَ إليها. متعبة كانت كما لو أنها على مشارف الستين، لكنها كانت طويلة كما عرفتها دائمًا، رغم أن الأعباء الملقاة على قلبها كافية لسحقِ قامة سنديانة.

- أنا أُبشِّرُ الولد، وأنتِ تبشّرين البنتَ، ما رأيك؟!

وثانيةً وجدتُ رأسي يهتزّ، دون أن أدري ما الذي يعنيه ذلك، لكنها فهمتْ هزَّةَ رأسي كما تشتهي؛ اندفعتْ نحوي، قبَّلتني من جبيني ثانيةً،

تراجعتْ قليلًا، تأملتْني، ثم قالت: ما لي في هالدنيا غيرك، الله يرضى عليك، جَبرتي خاطري، والله لو كان لي ولدْ ثاني لزوَّجْتك إياه.

- ولو خالتي آمنة، وهل أنا بحاجة إلى دليل لأعرف كم تحبينني؟

امتلأتْ عيناها بالدموع. استدارتْ؛ ورحتُ أراقبها تبتعد، وغطاءُ رأسِها يرفُّ محاولًا تقليدَ جناحٍ بلا جدوى.

***

- مَنْ يطرقُ بابنا من صبيحة الله هذه؟

سألتني أمي دون أن تستطيع فتْح عينيها..

- صوت القنابل. قلتُ لها، وأعدتُ: صوت القنابل.

- كنتُ متأكدة من هذا، ولكنني ظننتُ أنني أحلم. الله لا يخلي واحد فيهم، خلطوا ليلنا بنهارنا. ألا يتعبون، ألا ينامون، هل هم طُرْش لا يسمعونَ صوتَ القنابل التي يطلقونها!!

حين أصبح رأسي تحت اللحاف، سألتني: كم الساعة الآن؟

- السادسة.

- السادسة، قومي، ألم تشبعي نومًا!!

قلتُ لهم إن الشمس قد أصبحتْ في وسط السماء،

قلتُ لهم هذا الكلام مائة مرة، لكن أحدًا منهم لم يتحرَّك، قلتُ لهم، ما هذا الكسل الذي نـزلَ فجأة عليكم، لم تكونوا هكذا من قبل، لا الـزّوجُ ولا الابنُ ولا الأخ، لقد نمتم كثيرًا، أكثر مما يجب، وعليكم أن تصحوا الآن، أن تروا الشمس، على الأقل، وأن تتحدّثوا معي قليلًا قبل أن أذهب.

قلتُ لهم إن الشّاي جاهز، والفطور جاهز، والمواضيع التي ستتحدثُ فيها جاهزة، لأنني أفكّر فيها منذ زمن طويل، لكنَّهم ظلّوا نائمين.

من أين نـزلَ هذا الكسل يا ربي عليهم فجأة، لو كان قلبي أقسى مما هو عليه قليلًا، قليلًا فقط، لانتزعتُ هذه الأغطية عنكم ونثرتها في الجوّ، وحوَّلتها إلى عاصفة، لكن قلبي لا يطاوعني.

حَنون من يومه!

من كان يقول هذا الكلام غيركَ يا مصطفى، يا أخي الأحنّ مني، يا أخي الذي لم يُفارقْني، حين فارقني الآخرون، حين ذهبوا، بعضهم للأردن وبعضهم لسورية، وبعضهم وصل السّويد.

هل تذكُر، حين راحوا يتطلّعون للجهات، ويتسمَّعون صوتَها، قلتَ لهم: أعرفُ أن كلَّ جهة تنادي واحدًا منكم، وسيسمعُ صوتَها وحده، من دون بقية أصواتِ الجهات الأخرى، ويتبع الصوتَ حتى يختفي فيه. هكذا قلتَ لهم، كأنك فيلسوف والله، وحين قالوا لك ساخرين، وأنت يا أستاذ مصطفى: ما هي الجهة التي تناديك ولا تسمع سوى صوتها؟ أشرتَ للأرض.

قالوا لك: الأرض ليست جهة، الأرض مكان، أما الجهات ففوقها.

قلتَ لهم: كلُّ الجهات تلتقي هنا، فيها، ومن يملكها يملك الجهات جميعها.

الله، لقد أطربني كلامك يومها؛ لا، ليس لأنك ستبقى عندي هنا، في غزّة، بعد زواجي، في حين أرادوا لي أن أبقى شجرةً وحيدة، بلا سند، في وقت لم يكن جاءني فيه الولد؛ لا، أطربني لأنه أطربني؛ وقد أطربها، رندة، حين أعدتُهُ على مسامعها، فقالت لي: مسموح لي أكتب هذا الكلام؟

فقلت لها مسموح. وكتَبَتْهُ في دفترها!

كم مصطفى لي؟ آه؟ قل لي كم مصطفى لي؟ مصطفى الذي أصرَّ على أن أتعلَّم، وأتخرَّج من الجامعة، ألا يستحقّ أن أفهم كلامَه إلى هذا الحدّ وأن يُطربني؟

سامحني، يا مصطفى، ولكنني سأقول لك، إن الذي لم يجرّه خوفه على أولاده، جرّه حلُمُهُ في أن يكون له حلم خارج شقائنا هذا على شطِّ غزَّة. لا، لا تفهمني غلط، فحتى لو كنتَ متزوجًا، ولكَ أولاد، لبقيتَ هنا، معي، حتى لو كان لك عشرون ولدًا تخاف عليهم لبقيتَ معي، وقد قلتَها بنفسك، رغم أنكَ لم تقلها: وآمنة ، نتركها لمنْ هنا؟!

أعرف أنني لم أسمعْها، لكنكَ بالتأكيد قلتَها لهم، وكان يسرُّهم أن تبحثَ عن سببٍ آخر للبقاء معي، وأن تشير إلى جهتكَ الوحيدة، جهتك التي تتجمّع فيها الجهات كلّها، كي يُبرِّئوا ضمائرهم، وهم يتهامسون في آذان بعضهم البعض: على الأقل هناك من سيبقى ويرعى أختَنا.

وقد بقيتَ، بقيتَ تمامًا، قلتَ لهم: هناك أسطورةٌ فلسطينية تقول إن الله يخلق الإنسان من ترابين، تراب المكان الذي وُلِدَ فيه وتراب المكان الذي سيموت فيه. لقد عرفتَ من زمان، أننا خُلِقْنا من هذا التراب وحده، لأننا عليه وُلِدنا وعليه نموت، وقد يكون ترابُ أخوتي هو الذي يناديهم، ترابُ موتِهم، أما نحن، فالذي ينادينا ترابُ حياتنا، هكذا، من الأوّل، ومَنْ منا لا يستطيع أن يسمع نداءً بهذا الوضوح؟

أنتَ تذكر حكايةَ الشهيد محمد موسى أبو جزر، تذكُرها طبعًا، إنها تصديق لكلامك الذي قُلتَه، كيف يمكن أن تُفَسِّرها؟: رجل يغيبُ أربعين عامًا عن وطنه، ويشارك في معارك لا حصرَ لها خارجَ فلسطين، وبعد أن يعود يستشهد وهو يدافع عن (رَفَح). هنا، قُربنا.

الله، الله يا مصطفى،

لقد فهمتُ الآن، فهمتُ الآن كلامك الذي قلتَه لهم، فهمته يا مصطفى، الله كيف أشرق فيَّ، فجأة، كالنّور، فهمتُ لماذا أشرتَ إلى التراب. كنتَ تسمعه، ولم تكن تخبرني، فهمتُ يا مصطفى، ليس هناك مبرر أن أكون قد سمعتُ هذه الأسطورة أو لا، المهم أننا نحسُّها، لأنها فينا، فيك، في دمك أسمعها تجري.

كيف لم يفهموا؟

أتذكَّرُكَ، دائما كنتَ تسبقهم عشر خطوات، على الأقل. لا أريدُ أن أبالغ، لم أعد أحبّ المبالغة، فالزمان بالغَ معي بما يكفي ويزيد. دائمًا كنتَ تسبقهم

عشر خطوات على الأقل. أتذكُرُ، حين جاء جمال لخطبتي، حين حـدَّثَ أبي، وحين ارتبكَ أمام سؤاله الذي لم يكن مفاجئًا، السؤال المتوقَّـع الـذي يـسأله أهل أيِّ عروس: من وين بتعرف البنت؟!

ارتبك الحزين!! قال لي إن السماء سقطتْ على رأسه؛ وبعد قليـل عـرف أنها كانت ممتلئة بالغيوم. هكذا كان يستعيد الحكايـة ويـضحك: غرقـتُ في ماء لم أر مثله يا آمنة، لا، ليس عَرَقًا، لو كان عرَقا لأحسسته يتسلل من تحت ثيابي، لكنه كان يأتي من تحتها ومن فوقها..

قالَ له: وتحبها أيضًا!

وتجرأَ الحزين وقال له: وهل على الرجل أن يتزوّج المرأة التي يكرهها؟!

- بتتمسخر عليّ؟!

هكذا صرخ أبي في وجهه. بتتمسخر عليّ؟ ما في عندي بنات للزّواج.

وحدكَ الذي وقفتَ معي، وحدك الذي قلتَ لي تلك الكلمات البـسيطة: ولا يهمّك!

- ولا يهمني، كيف ولا يهمني؟ إن لم يخطبني اليوم فمتى سيكون ذلـك، بعد أن يعودَ من مصر؟! لم تزل أمامه أربع سنوات حتى يتخرّج، والله يعلـم ما الذي يمكن أن يحدث في أربع سنوات.

وأعدتَها: ولا يهمّك!

فقلتُ: ما دمتَ أعدتَها، فإنك تعرف ما الذي تقوله، ما الذي تعنيه، فلـم أفتح الموضوع ثانية.

وقلتَ لي: لا تقطعي أهله، زوريهم، إنهم يحبونك، عيشي معهـم كـما لـو أنك واحدة منهم، خطيبة ابنهم، وزوجة المستقبل.

- فِكْرَكْ؟!!!

- طبعًا.

- ولكن أبي سيُجَنُّ.

- سيُجنُّ؟ لا، لا أظن ذلك، سيُجنُّ لو أن جمال هنا في غـزّة، ولـيس في مصر، سيُجن، ربما، في البداية فقط.

كل ما قلتَه حدثَ. نعم، كلّ ما قلتَه. أرغى وأزبد، وشتَم، وحين قلتَ له: إنها تزور صاحباتها، أخواته، فجمال في مصر، وليس هناك سوى الختيار والختيارة والبنات. قال: وليكن! لا تزورهم، يعني لا تزورهم!

لكنني عشتُ معهم في بيتهم طَوال تلك السنوات أكثر مما عشتُ في بيتنا؛ ويوما بعد يوم، لم يعد يسألني أين كنتِ؟ كان يراني سعيدة بوجودي معهم، الله يرحمه، لستُ أدري لماذا كان عليه أن يبدو قاسيًا. هل هنالك سببٌ سوى أنه أب، وأن همومنا أكبر من جبل؟!

ناداني، وقال لي: تزوجيه يابا. أفضلُ بيتٍ للبنتِ هو البيت الذي يحبها فيه أهلُ زوجها أكثر منه. الآن أعرفُ أنهم يحبونك!

وصمت طويلًا. ثم قال لي: أما أن يأتي هو ويقول لي بأنه يحب.. هكذا من الباب للطاقة، فهذا لا يجوز. فهمتِ.

قلتُ له: حاضر.

وعندها راح يضحك ويضحك: هل اعتقدتِ أنني أقول هذا الكلام عن جدّ؟!!

وراح يضحك ويضحك حتى مات.

الله يرحمه.

***

وها أنا أضحك وأضحك، وأحسُّ بأن ضحكي فاق كلّ الحدود.

لا بد لي من أن أبكي قليلا إذن.

ها قد بكيتُ!! ولكنني لا أعرف الآن إن كنتُ أمسح دموعَ الفرح أم دموع الحزن، والله انكم حيرتوني!!

وبعدين يا ولاد.

الشمس أصبحتْ في وسط السماء، ما هذا الكسل الذي نزل فجأة عليكم؟! لم تكونوا هكذا من قبل، لا الزّوج ولا الابن ولا الأخ، لقد نمتم كثيرًا، أكثر مما يجب، وعليكم أن تصحوا الآن، أن تروا الشمس، على الأقل، وأن تتحدّثوا معي قليلًا، قبل أن أذهب.

مصطفى، مصطفى، لا تنس أن عليك الكثير فأنتَ خال الولد. وأنت يا صالح، قوم، قوم شوف الشمس، شمس عيد ميلادك، لا تفوِّتها، شوفها، هذه شمسُ عامكَ الجديد، شمس سعدكَ. يا كسول، يا أهبل! هل يُفوِّتُ أحدٌ شمسَه، شمسه التي تشرق له وحده، أنظر، حتى الغباش لا وجودَ له اليوم، حتى الدّخان غير موجود. هل تعرف منذ متى أنتظر هذا اليوم؟!!

منذ، لا أدري، وأنا أعدُّ على أصابعي، لكن ما يدهشني أن أصابعي لم تعد تنتهي، ولذلك بقيتُ أعدّ وأعدّ، ليلًا نهارًا، حتى توقَّفتُ فجأة، وعندها انتبهتُ، وعرفتُ أنكَ قد كبُرت.

الآن، سأقولُ لك سرًّا، ولكن لا تبُحْ به لأحد، لا تبح به حتى للتراب، لأن الريح ستعرفه! لقد فكَّرتُ طويلًا، طويلًا جدًّا، ولم أجد أفضلَ من هذا. سأزوجكما.

لا تريد أن تنهض، بلاش!

ها هو الشّاي يبرد قبلَ أن تشربوه. والله لستُ أدري لماذا أُتعِبُ نفسي بهذا كلَّ يوم.

أما أنت يا مصطفى فها أنا أقولها لـك سـأذهب وأخطبهـا وحـدي إن لم تنهض.

لن تنهض!!

طيبْ!!

إذا أفاقَ قبل عودتي لا تقل له أي شيء. إياكَ!! لأنني سأجعلها مفاجأة.

أحيانًا تمر أيام كثيرة،

دون أن أرى أخويَّ، جواد وسليم،

دون أن أرى أحدًا،

خطفًا يَمُرّان، في الظلام غالبا، يُقبِّلان يديّ أمي ويطمئنان علينا، وهما لا يعرفان أننا نحن الذين نطمئنُّ عليهم.

أحيانا تمر أيام كثيرة دون أن أراهما.

لا، ذلك لا يعني أنني أمضي اليومَ وراء باب مُقفل. فأنا الوحيدة ربما التي لا يستطيع مكان ما أن يُبقيها داخله أكثر مما تريد.

- بَصَلَتُك محروقة! تقول لي أمي، وأقول لها: لا يتعلَّق الأمر بالبصل أو بسواه، لكنني أحسّ أنني جالسة باستمرار في مقلاة تحتها نار.

أخرجُ للشوارع كي أرى، فلا أرى شيئًا.

نحن كثيرون في هذا الشريط الضيق إلى حدٍّ أنني لا أستطيع أن أرى أحدًا تمامًا.

في البيتِ كثيرون، في الشّارع، في المدرسة، في السّوق، وأحسُّ أننا لو نظرنا مرّة واحدة للبحر فستبتلعه أعيننا.

وكثيرون في أحزاننا..

- كان يلزمنا قلوبٌ أكبر كي تتسع لكل هـذا الأسـى. قالتْهـا ذاتَ مـرّة جدتي، ولم أفهم كلامهـا إلاّ بعـد زمـن طويـل. وذات يـوم سـألتها: كيـف تفسّرين أن أحلامنا لم تصغر في أيّ يوم من الأيام؟

التفتتْ إلي وقالت: ما الذي تعنينه؟

قلتُ لها: قبل سنوات قلتِ: كان يلزمنا قلوب أكبر كي تتسع لكلّ هـذا الأسى.

فالتفتتْ إلى دهِشَةً وقالت: أنا قلتُ هذا الكلام؟!!

- نعم، أنتِ، وهو مسجّل في دفتري أيضًا.

- إذا كنتُ قلتُ كلامًا كهذا، وأنتِ كتبتِه، فـإن هـذا الكـلام صـحيح! قالت.

- وماذا عن أحلامنا؟ سألتها.

- أحلامنا لم تكبر. قالت.

- ما الذي تعنينه.

- أحلامُنا لم تكبر لأنها أحلام صغيرة منذ البداية. الأحلام، كلُّ الأحـلام تُولد صغيرة وتظلُّ صغيرة، ولذلك، ليس غريبًا أننا نحن من نرعاها طـوال العمر. لو كانت الأحلام كبيرة لقامتْ بنفسها لترعانا.

- مسموح لي أكتب هذا الكلام؟

- مسموح، بس ما تزيدي من عندك!

طبعا، كلام كهذا لم أكن أسمعه على الطَّالعة والنَّازلة كما يقال. كان يجب أن أُحضِّرَ له الجوّ الملائم الذي يمكـن أن يتفـتَّح فيـه، ولم تكـن جـدّتي ذات مطالب كثيرة كي تصلَ إلى تجلِّيها هذا. كـلّ مـا يلزمهـا أوقيّـة بـزر بطـيخ،

وفنجان قهوة كبير تختتم به القزقزة بعد وصلة مديح لأسنانها القوية التـي لا تشبه أسنان بنات هذه الأيام؛ ولا بدّ أن يكون ذلك ما بين التاسعة والعاشرة ليلًا، لأنها تبوح بها أتمنى سماعه في هذا الوقت، وتنام.

- لا شيء يجعلني أنام كالقهوة! تقول لي.

وتذهب في نوم عميق..

أحيانًا، في بعض الليالي، تصحو على صوت القنابل، فتأتي إلي في فـراشي، تهزُّني إلى أن أفيق فتسألني: من أين اشتريتِ القهوة آخر مرّة؟!

فأقول لها نصف نائمة: من عند "أبو مسعود".

- لا.. لا تشتري القهوة منه مرّة أخرى، قهوته خفيفة، خفيفة إلى حدّ أن رصاصة واحدة تمرّ في الجوّ تجعلني أصحو. اشتري لي من قهـوة "المُغـربي" فهي الوحيدة التي تبقيني نائمة حتى السّابعة صباحًا.

***

ظلَّت جدتي صـديقتي الوحيـدة، عكـس تـوأمي التـي كـان لـديها مـن الصديقات ما يكفي عشر بنات وحيدات.

ظلّت جدتي صديقتي الوحيدة إلى أن وصلتْ "آمنـة"، فقالـت جـدّتي: الحمد لله ان هذه المستورة أصبحتْ جارتنا، لأنها خفَّفتْ مـن أوجـاع رأسي الكثيرة التي تسببينها لي بأسئلتك التي لا تنتهي.

وقالت أُمّي مُعَلِّقَةً: العجيب أنها لا تـستطيع الجلـوس في مكانهـا خمـس دقائق، ودائما في الحارة، لكنها غير قادرة على إقامة علاقة صداقة واحدة مـع أيّ بنت أكثر من يومين. وإذا لم تجد أحدًا تقاتله، تقاتل خيالها!

فأرد: وما الذي يمكن أن أفعله، أن أجامـل وأجامـل. كلّـما تعرفـتُ إلى واحدة، أحسستُ بأن الذي يلزمها (حفّاظة) لا صديقة. بنات جاهلات!!

- اسم الله عليك يا عبقرية زمانك! تقول أُمّي ساخرة.

وتضيف أختي: بتفكّر نفسها طه حسين.

- طه حسين مين؟! تسأل جدّتي، بِقربلنا؟!

- هذا كاتب يا ستي. تجيب أختي.

- كاتب عَدِل؟!

- لأ، كاتب كُتُب.

- كُتب زواج يعني؟

- لأ، كاتب كُتب من التي نقرأ مثلها في المدارس.

- ولماذا لم تقولي هذا من الصبح. هيك أحرجتيني!!

- متأسفة يا ستّي. تردّ أختي وترمقني بنظرة من طرف عينها، كما لو أنها نجحتْ، وأنا سقطتُ في الامتحان للمرّة العاشرة.

***

آمنة، كانت أشبه بنسمة، مرّتْ ذات يوم من شارعنا، توقّفتْ قليلًا، أعجبها المكان فقررتْ أن تُقيم فيه.

حين دقّتْ بابَنا، كنتُ أنا أوّل من يراها من أهل بيتنا، جميلة كممثلات السينما، تشبه "آثار الحكيم". تشبهها كثيرًا.

سألتني: هل هناك بيوت للإيجار هنا؟

- للإيجار لا، ولكن هناك بيت للبيع.

- للبيع؟! لم نفكر بشراء بيت. وأظننا لا نستطيع.

كانت تحدّثني بلهجة من يعرفني من سنوات طويلة، تحدّثني كبنت كبيرة، وليس كبنت صغيرة أطلتْ من نصف باب. شجّعني هذا كثيرًا، أشرعتُ البابَ كلّه.

وقفتْ محتارة، ثم سألتني: وأين البيت؟

أشرتُ بيدي نحو البيت المجاور لبيتنا: هذا.

رجعتْ خطوتين للوراء، نظرتْ صوبَ البيت، أحسستُ أنها لم ترَ شيئًا، فمضتْ إلى الطرف الثاني من الشارع. كانت تتأمّل البيت وكنت أتأمّلها.

بعد قليل سارتْ باتجاهي: في البيت نخلة!

قلت لها: نعم في البيت نخلة، وهناك نخلة أخرى يحجبها السّور.

- شكرًا، قالت لي. ومضتْ.

أيام طويلة مرَّتْ، لكنني لم أنس وجهها، حدَّثتُ جدّتي عن تلك المرأة التي جاءت وسألت عن بيت هنا في حينا، وقلتُ لها إنها تشبه آثار الحكيم.

فقالت لي: تشبه الدكتور عبد الله!

- يا جدتي، الحكيم اسم أبوها.

- اسم أبو مين؟

- آثار.

- آثار. وهل للآثار آباء مثلنا؟!

- يا ستّي، آثار الحكيم اسم ممثلة مصريّة في السينما والتلفزيون.

- ولو! وهل تُشترى الأسماء في مصر ليسميها أبوها آثار؟ ثم لنفترض أنها تُشترى، فقد كان يمكنه أن يشتري اسمًا أجمل لها، بخاصة وأنه دكتور!

- يا ستي الأسماء لا تُشترى؟

- تريدين أن تُعلميني أن الأسماء لا تُشترى؟! بتفكريني هبلة؟ طبعًا الأسماء لا تُشترى ولكن هيك المثَل.

- بس بذمتك يا ستي، اسمها، كلُّه على بعضه، أليس جميلًا؟

- بصراحة، متزعليش مني! لأْ مش حلو، شوفي اسمي شو حلو، (وصفيّة) بذمتك مش أحلى من كل أسماء هذه الأيام؟

- طبعًا.

- أها، اعترفتِ!

***

ذات يوم سمعتُ الباب يُطْرَق، خرجتُ، فوجدتُها أمامي، فرحتُ، فرحتُ كثيرًا، وحين رأيتُ رجالًا يُفرغون الشّاحنة أمام البيت المجاور، تركتُها واقفةً، قبل أن أعرف ما الذي تريده، ورحتُ أعدو للداخل صارخةً بفرح: آثار ستصبح جارتنا، آثار ستصبح جارتنا!

سألتني أختي: آثار مين؟

- آثار الحكيم.

- مجنونة أنتِ. آثار الحكيم شو بدّو يجيبها على غزّة؟

لكنها نهضت وراحتْ تجري للباب الخارجي.

بعد قليل عادتْ صارخة: آه والله!!

خرجتْ أُمّي على صراخ الفرح المباغت الذي هبَّ في أطرافنا: كنتُ أتمنّى أن تكون الواحدة منكن بنصف هذا النشاط حين أطلب منها شيئًا. بدل هذه النطنطة الفارغة. واتجهتْ للباب.

- أهلًا يا أختي. سمعناها تقول ذلك.

كنا نقف خلفَ أُمّي ونحن نتقطَّع غيظًا لأنها لم تعرفها، لأنها تخاطبها كما تخاطب أيَّ جارة من جاراتنا، أهلا يا أختي.

ونسيتُ أنا نفسي أنها امرأة تشبه آثار الحكيم، وليست آثار نفسها، حين صدَّقتْ أختي بأنها هي. وقلتُ: كنتُ هبلة فعلًا!

- عليَّ أن أتعرَّف على جيراني قبل أن أتعرف على بيتي. الجار قبل الدار. ثم أضافتْ: أختك آمنة، أم صالح. قالت لأمي، وراحت تشير بفرح إلى بطنها المتكوِّر. بطنها الذي أكتشفتُ أنني أراه للمرّة الأولى.

- أهلا وسهلا، قالت لها أمي. تفضَّلي.

- اسمحي لي؛ في يوم آخر.

- أم صالح! قالت أختي.

- أم صالح! قلتُ.

- وحامل! قالت أختي.

- وحامل! قلتُ.

- لا يمكن أن تكون آثار الحكيم. قالت أختي.

- بل هي آثار الحكيم، ولا بدّ أنها اعتزلت الفن، وقررت أن تتفرَّغ لأسْرَتها. قلتُ.

- ولكن اسمها آمنة وليس آثار.

- أكيد هذا اسمها الحقيقي. ألا تعرفين أن للفنانات والفنانين أسماء فنية؟ وأضفتُ: الأيام ستثبت أنني على حقّ.

***

بعد أسابيع، حين عرفنا أن زوجها كان يَدرسُ في مصر، ورأيناه، قلت لأختي: شفتي. هل صدَّقتِ كلامي؟! لا بد أنه تَعَرَّفَ إليها هناك وتزوَّجها، وقررت الانتقالَ معه إلى هنا.

- وهل تعتقدين أن آثار الحكيم مجنونة لتهجر الفنّ وترحل إلى هنا، ومن أجل ماذا؟ أن تتزوج! وهل هناك قلّة عرسان في مصر؟!

- بذمتك، لو كنتِ ممثلة، والتقيت بشاب كزوجها، ألا تهجرين الفن؟!

سألتها، وأنا لا أعرف من أين أتاني هذا الكلام.

صمتتْ طويلًا، ثم قالت لي: الصحيح أهجر الفن وأبو الفن.

- أها، إذن اعترفتِ، إنها آثار الحكيم.

- لا ليست آثار الحكيم.

***

حين قررتْ أمي الذهاب لزيارتها، حاملةً هدية لها: دزينة من فناجين القهوة. رجوناها أن تأخذنا معها.

حين فتحتِ الباب، كنا نرتجف فرحًا وارتباكًا. حتى أختي التي كانت تؤكّد لي يومًا بعد يوم أنها ليست آثار الحكيم.

حين رأتنا معًا سألت: مين رندة ومين ليس؟!

قالت أختي: أنا ليس.

وقلت: لا. أنا ليس.

فصرخت أُمّي: آه، عُدْنا لتعب القلب اللي ما صدقنا إنّا إنسيناه!!

جلسنا في غرفة الضيوف الصغيرة صامتتين، في الوقت الذي كانت أمي تتحدّث معها في مواضيع كثيرة لم نسمع منها شيئًا، فقط كنا نتأمّلها. وحين انتبهنا إلى أن أُمّي وقفت مُعلنَة انتهاء الزيارة، سألناها معًا، وبلا مقدمات: هل أنتِ آثار الحكيم؟!

التفتتْ إلينا وقد أمسكتْ كلّ واحدة منا بطرف من ثوب أمنا، وسألتنا باستغراب شديد: آثار الحكيم؟ مَن آثار الحكيم؟!

- ألا تعرفينها حتى؟ سألناها معًا. وصمتْنا.

وحين رأتنا وقد تحولنا إلى تمثالين حجريين، فاجأتنا بضحكة أعادتنـا إلى أصلنا بشرًا مرّة ثانية.

- طبعًا بعرفها. ولكن هل أشبهها لهذا الحد؟! هذه هي المرّة الأولى التـي يقول لي فيها أحد مثل هذا الكلام.

ثم انحنتْ نحو أختي أولا وقبَّلتها، ودارت نصف دورة حول أُمّي حتـى أدركتني في اختبائي هناك، وقبَّلتني.

حين وصلنا الباب قالت لي أختي: هـل صـدقتِ الآن أنهـا ليـست آثـار الحكيم؟!

- قلت صدَّقتُ لأنها أحلى منها.

- جمال، يا جمال!

السّاعة صارت تسعة. جمال، لا أريد أن يسمعوا صوتي، لقد ذهبتُ إليهم، رأيت رندة، رندة أختها. أخت مين؟!! أخت لميس! وحدَّثتها في الموضوع، لن تستطيع أن تتصوّر كم هي رائعة هذه البنت، والله لو كان يحبها قليلًا، لخطبتها هي وليس لميس، لكن القلب وما هوى! لقد صدَقتْ أمُّها، وهي تدعوها دائما "صاحبة الرأس الصغير". ظلَّت جميلة، كلميس، وصغيرة مثلما عرفتها أول مرّة. تعرف، هذه المسألة تحيرني يا جمال، دائما نظلُّ نحتفظ بالصّورة التي رأينا الشخص عليها أوّل مرّة، أنتَ بالنسبة لي دائمًا ذلك الشّاب الذاهب إلى مصر، الشاب الخائف من أيٍّ مدينة غير غزّة. لا، لا تفهمني غلط، أنت ما زلتَ كما أنت، ليس لأنني أحتفظ بهذه الصورة لكَ، بل لأنكَ فعلًا بقيتَ هكذا، جميلًا وطويلًا، ولكي أُثبتَ لكَ ذلك، أنظر إلى رأسك، ليس فيه حتى الآن شعرة شيب واحدة.

لكن الأمر لم يزل يحيّرني يا جمال، لقد عرفتُ آباءَ وأمهات، وعرفت أبناءهم وبناتهم، لم يكن الآباء والأمهات بعُمْر أبنائهم اليوم، كانوا أصغر، لكنني لا أستطيع أن أرى الابن أكبر من أبيه، أو البنت أكبر من أمّها، مهما عاش الابن، ومهما عاشتِ البنت.

دائما يظلُّون أصغر. حتى لو غطّاهم الشّيبُ وانحنتْ ظهورُهم وهرَّ شَعرُهم وابيضَّتْ عيونُهم، وثقل سمْعُهم؛ يظلّون أصغر. هل لاحظتَ ذلك؟

أنا نفسي قابلتُ أناسًا يا جمال.. زمان، كانوا أكبر مني قليلًا، أو كثيرًا، لكنّهم ماتوا، استشهدوا، رحلوا، أو أيّ شيء تريده، واليوم أصبحتُ أكبرَ منهم بكثير، لكنني لم أزل أراهم أكبر مني، كما رأيتهم أولَ مرّة.

جمال، ستضيّعُني بهذا الكلام!!

ستجعلني أنسى.

لقد رأيتها.

مين؟ لسَّه بتسألني مين؟! رندة! قلتُ لها، يا رندة يا حبيبتي، أعرف أن أباك في السّجن منذ عشرين سنة، لكنّ الحياة يجب أن تسير هنا، رغم كلّ شيء. قد لا أكون قلتُ لها ذلك، ولكنّي لا أكذب عليك، فلو رأيتُها سأقولُ لها هذه الكلمات كلمة كلمة. كان عليَّ أن أقولها، لكني رحتُ مرتبكةً. دائما يذهب أهلُ العريس يُقدِّمون خطوةً ويؤخِّرون خطوة، فأنتَ تعرف، أسوأ شيء أن يُفَشِّلوك، أن يقولوا لكَ كلامًا لا يليق، وأنا أخاف من شيء كهذا. أنسيتَ ما الذي فعله أبي بنا، حين رفض طلبكَ، صحيح أن المسألة كانت مختلفة، فحين يطلبُ شابٌّ يدَ بنت يحبها وتكون تحبه ويرفض طلبهما فإن الاثنين معًا يشعران بالهوان ذاته، ولكن المسألة أعقد هنا، نعم أعقد، صحيح أن ليس وصالح يحبّان بعضهما، والمسألة مش سِر، رغم أن ليس ظلتْ دائمًا متكتّمةً، لكن الصّعب أن رندة أكبر من ليس، صحيح أكبر بخمس دقائق لا غير، ولكنها أكبر، ولها الحقّ، في نظر أمّها وأبيها وأخويها أن تتزوج أولًا، لذلك أحببتُ أن أتحدّث مع رندة أولا، حتى لا يُجرِّحُها أحد بالقول، لقد تزوجتْ أختُكِ الصغيرة قبْلَكِ. فَهمتَني؟ حتى تحسّ أنها هي التي زوَّجتْ

أختها، وهي التي أعطتِ الوعدَ بالزّواج. ثم عليكَ أن تتذكّر أنها صاحبتي، صحيح أنني لم أزل أراها كما رأيتها أول مرة وهي تختبئ خلف أمها، وتتطلع إلي كأنني آثار الحكيم؛ أعرف أنني لم أقل لكَ هذا الكلام، لكنه أسعدني كثيرًا، لم أقلْه لك حتى لا تعتقد أنني شايفة حالي!!

ما الذي فعلتُه يا جمال؟ ها قد قلتُها لكَ وأنا لا أريد أن أقولها، ولكن أقسم بالله العظيم عشر مرات، لا بل ثماني عشرة مرّة، بعمر ابننا في صباحه هذا، أنني لم أقصد أن أقولها لك.

خلاص، صدَّقْتَني، حبيبي!!

ما الذي كنتُ أقوله؟

كنتُ أقول يا جمال، إن المسألة صعبة عليَّ، فتصَوَّر -والإنسان يبقى إنسانًا في النهاية- تصوَّر أن رندة أخذتْ على خاطرها، وقالتْ لي: كنتُ أعتقد أنني أنا صديقتك المفضَّلة، وأنكِ تحبينني أكثر، وأنكِ حين تفكِّرين بعروس لابنكِ، لن تجدي أفضلَ مني. تصوّر أيّ مصيبة هذه التي سأقعُ فيها، حين لا أجد كلامًا أُفسِّر لها الأمر به.

الصّحيح، ما في أفضل منها، أقولُ لكَ هذا بصوت منخفض حتى لا يسمعني صالح، لكن الولد وقع في حبِّ لميس مِنْ...، لا لن أقول لك ذلك، لا لن أقول.

زعلتَ، خلاص، سأقولها لكَ.

تقول لي: من أوّل هبة هواء أطارتِ الفستان؟ من قال لكَ ذلك؟! كيف عرفتْ؟! لا أتذكر أنني قلتُها لكَ، ومن المستحيل أن يقولها الولد. هل من المعقول أن يكون قد تجرأ وقالها لكَ، ولكنه لم يقلْها لي وأنا أمّه!! لا، لا يمكن؛ فحين يصل الأمر إلى هبة الهواء التي أطارت الفستان، أيّ فستان،

فإن الأمر يتحوّل إلى أكثر من جدّ. يكون الولد قد كبر دون أن أنتبه، كبر الولد وأصبح، ماذا أقول، أصبح عريسًا، دون أن أنتبه.

لكن الحب لم يبدأ، على أيّ حال من هنا، بدأ قبل زمن طويل. هنا يمكن أن أقول إنه تطوَّر!

ألم أقل لك يا جمال، إننا نحتفظ بالصّورة الأولى عن الناس الذين نعرفهم، والصّحيح، ها قد جاء المثل الصحيح، المثل الذي لا مَثَل بعده: أولادنا، أولادنا يا جمال، أولادنا الذين يظلّون في أعيننا أولادًا، أولادنا الصّغار الذين لا نتصوَّرهم كبارًا مهما كبروا.

فهمتني الآن.

طبعا، غدًا سنزوّجه، ويكون له أولاد، قول: إن شاء الله؛ وأصبح جدّة، وتصبح جدًّا، ولكننا لن نُصدِّق أنه أصبح أبًا، كما لن يُصدِّق أحد يعرفنا من زمان، أننا أصبحنا جدًّا وجدَّة.

كل الناس يا جمال، يحبون الآخرين على الصّورة التي رأوهم عليها أوّل مرّة. نعم. ما هو السبب في رأيكَ؟ أنا يحيّرني هذا الأمر كثيرًا؛ طبعًا، أنا لا أفكِّر في هذا الأمر ليل نهار، ولا أريد أن أُقرقِع رأسكَ بهذا الكلام، ولكني أظن أن الناس يحبّون من أحبّوا على تلك الصورة التي رأوهم بها أول مرة، لأنهم يعرفون في قرارة أنفسهم، كما يُقال، أن هؤلاء الناس سيتغيّرون، وأنهم لن يكونوا أولئك الناس الذي عرفوهم، ولذلك يكونون مضطرين للاحتفاظ بالصّورة الأولى.

لا تضحك عليّ! لقد فكَّرتُ في المسألة كثيرًا جدًا، وأدركتُ أخيرًا أن الإنسان آلة تصوير! نعم، آلة تصوير. ها أنتَ تضحك. تضحك! لا تريدني أن أُنهي كلامي. بلاش. خلص. لن أتكلَّم.

أتعني أنكَ فعلا لا تضحك عليَّ؟ هل تُجاملني إذن؟ تأخذني على قد عقلي؟!

تقول لي: إن عقلي كبير. ولا يمكن أن يكون أقل من ذلك؟ لكن الفكرة عجيبة. طبعًا عجيبة، ولماذا أقولها لكَ؟ هل عليَّ أن أثرثر فقط! أن أقول كلامًا يسوى، وكلامًا ما يسواش، وأنا أتحدث معك؟!

تجاملني، أم تقول الصّدق. كلّ كلامي يسوى.

شكرًا.

وحتى اللي ما يسواش؟

ماذا تقصد؟ ها قد عُدنا للبداية، سأزعل والله، ولن أُحدِّثكَ، لن أُحدثكَ، وأنتَ تعرف أنني فعلْتها، وبقيتُ أيامًا طويلة لا أحدّثك، حين فهمتُ خطأ أنكَ لم تعدْ تسمعني! تلك غلطة لن أعيدها، لن أعيدها أبدًا، لا أقطعُ هذا الوعد حتى أرضيكَ، لا، بل لأنني فقط لن أعيدها.

أتريدني أن أُكمل؟

ولكن، عن أيٍّ شيء كنا نتحدث. ذكّرتني، عن الإنسان باعتباره آلة تصوير.

نعم، الإنسان آلة تصوير بالتّأكيد، ولا يلتقط لكلّ شخص يعرفه سوى صورة واحدة. طبعًا، لا أحدَ يعرف طول الفيلم الموجود داخل الواحد منّا، لكنني أظنّ، والله أعلم، أنه فيلم يطول ويقصر حسب إقبال الإنسان على الحياة أو إدباره. حسب الاستعمال يعني، فما دمتَ تستعمل عينيكَ جيدًا، وهما تقومان، هنا، بدور العدسة، فإن الفيلم الذي في داخلك يمتد ليكون قابلًا لاحتضان صور أخرى.

بعض الناس تعجبهم بعض الصّور فيكبرونها، ويضعونها على حوائط بيوتهم، أعني الصّور التي يلتقطونها بكاميراتهم العادية، ولكن صدّقني

سيأتي ذلك اليوم الذي باستطاعتك فيه أن ترى صـورتَكَ داخـل الـشخص الذي يحبّك. وفي هذه أظنّ أن فـيروز سـبقتْ زمانهـا، سـبقته بكثـير، وإذا لم تصدِّق كلامي هذا، فإنك ستـصدِّقُها، لأنـكَ تحـبّ أغانيهـا كلّهـا، ألـيس كذلك؟ فهي الوحيدة التي غنَّتْ:

دقَّتْ على قلبي وقالتْ لي اِفتحه

تا شوف قلبي إن كان بعده مطرحه

الله، الله!!

ألف مرة قلتَ لي، عجيب يا آمنة، كل أغانيها حلوة، أتمنّـى العثـور عـلى أغنية واحدة لا تُحَبّ كي أقلّل من حبي لها، ولكنها كاملة، هل تعتقدين أنهـا كاملة لأنني أحبّها، أم أنها كاملة لأن أغانيها كذلك؟

ابتعدنا مرة ثانية!

كنت أريد أن أقول لكَ، لسنا آلات تـصوير فقـط، بـل معامـل تـصوير غريبة عجيبة، لأنني لا أخفيكَ، حين ذهبتُ اليوم لطلب يـد لميس، رأيـت رندة على الصّورة التي التقطتَها لها عدسـتاي، أعنـي الـصّورة التـي رأيتهـا عليها أوّل مرّة: البنت الصغيرة التي تختبئ وراء أمها، وهي تختلس النّظر إليَّ باعتباري...، باعتباري تلك الممثلة التي قلتُ لكَ اسمها!! وهكذا، للحظة، فكرتُ أن أعود. وأنت تعرف أن الفرق في العمر بينهما خمس دقائق، كما أنهما الخالق النّاطق زي بعض؛ يعني حبة فول وانقسمتْ.

ولكن، أظنّ أن علينا من الآن أن نكون جاهزين للفـرح، أسـوأ شيء أن يباغتك الفرح رغم أنك تنتظره من زمن طويل.

أليس ذلك عجيبًا يا جمال. أليس عجيبًا أن الفرح يباغتنا دائمًا.

أتعرف لماذا؟

ببساطة لأن الإنسان يشكُّ في الدّنيا، الإنسان شكّاك يا جمال، واسمح لي أن أقول بأنه مراوغ، نعم مراوغ. كلمة كبيرة هذه؟ أعترفُ، نعم كلمة كبيرة؟

الإنسان يراوغ، أتعرف لماذا؟ حتى لا يفقد الدّهشة. فقط حتى لا يفقدها.

لستُ فيلسوفة ولا بطيخ!! منذ مدّة تقول لي هذا الكلام وتعيده، لكنني أحبُّ أن أقول لكَ، إنني لم أكن أرى تمامًا، يعني ببساطة، عدساتي كان عليهما الكثير من الغبار.

الآن، أنا آمنة أخرى، لستُ أدري إن كنتُ أفضل من آمنة القديمة أم لا، لكن الذي يؤكّد لي أنني أفضل، إحساسي بأنكَ، رغم قلة كلامكَ في الفترة الأخيرة، تحبّني الآن أكثر!

وجود آمنة في البيت المجاور،

غيَّر الكثيرَ

وغيَّرَنا، أنا وأختي..

أختي التي، ودون مقدِّمات تخلَّتْ عن نصف صديقاتها من أجل أن تكونَ إلى جانب آمنة، وهذا ضيَّقَ الفارق الكبير بيننا من حيث عدد الصديقات، وجعلني أبدو في عيني أُمّي أقلّ عزلة، مع أن شيئًا لم يتغير في الحقيقة.

أما أنا، فقد حدث وأن تحقَّقت المعجزةُ التي لم يكن أحد يظنّ أنها قابلة للتحقُّق، إذ غدتِ المقلاة تحتي أقلّ سخونة، بحيث أصبح بإمكان أمّي أن تبحث عني وتجدني في بيت آمنة.

غالبًا ما كنا ننتظرها عند بوابة البيت، في وقت عودتها من عملها من مركز تأهيل المصابين الذي قادتها شهادتها الجامعيّة في علم النفس إليه كمشرفة؛ من طرف الشارع تطلُّ حزينة دائمًا، ولكنها ما إن ترانا، حتى تنشر ابتسامتها التي عرفناها بها.

كان عليَّ أن أنتظر زمنًا طويلًا كي أدركَ حجمَ الأسى الذي تدفنه هناك في عتمة داخلها.

- ليس هناك أكثر إيلامًا من أن ترى طفلًا يتألم، طفلًا تعرف أنه لن يمشي، طفلا لن يعرف إلى الأبد ما سيحدث غدًا، في هذه الدّنيا، طَوال حياته.

حين تنتبه أمي لوجودنا، تطلبُ منّا الخروج للّعب، فنخرج، لا لأنها طلبت ذلك منّا، بل لأن آمنة لم تعترض على ذلك الطلب، ويكون هذا كافيًا لإفهامنا أن هذا الوقت لها. لكننا لم نكن نبتعد، نجلس عند العتبة، أو نسند ظهرينا إلى النّخلتين الوحيدتين في حوش بيتها، أختي تسند ظهرها للنخلة الصغيرة وأنا للنخلة الكبيرة، وننتظر الأوامر.

هكذا أصبحنا نُسمّي طلبات أمّي.

- من الصعب أن تجد القدرة في نفسك على الوقوف منتصبًا وأنتَ ترى ما تراه.

كان عليها الذهاب كثيرًا إلى المستشفيات للالتقاء بالأطفال المصابين، وإقناع بعض الأهل الذين لم يكونوا، غالبًا، يقبلون وضع أبنائهم تحت رعاية خاصة.

- يقتلكَ أن هذا العدد الهائل من الأطفال لن يروا الشّمس.

الرّصاصات التي كانت تطال عيون الأطفال بالذات، كانت تعذِّبها أكثر. وكانت الإصابات تزداد، وفي لحظات تتحدث كما لو أنها في مكان آخر، تقول:

- حين أسير في الشّارع أظلّ أتلفّت أمامي، حولي، باحثة عنها: عيونهم. أقول لعلّ واحدة سقطت هنا، ويُفزعني تناثر الألوان على بعض الجدران، فأقول لعلها عيونهم. بالأمس جاءوا بعيون زجاجية، عيون خضراء وزرقاء

وبنية وعسلية وسوداء، عيون صغيرة وكبيرة، عيون ميتة. فزعتُ، وقلتُ لعلها بعض عيون هؤلاء الأطفال، يقتلعونها، وبعد أن يسرقوا الحياة منها يعيدونها إليهم. أحد الأطفال اقترح، أن يُغمض كلُّ طفل عينه الباقية ويتناول عينا عن الطاولة. رفضنا ذلك، رفضنا، ولكنهم أخذوا يبكون، وصرخ أكثر من واحد منهم: هذا عدل!! فقبلنا، لكن الأمر تحوَّل إلى مأساة، حين فتح الأطفال عيونهم ورأينا عينا خضراء إلى جوار عين سوداء، وعينا عسلية إلى جوار عين زرقاء.. ضحكوا في البداية، لكنهم راحوا يبكون بفزع كما لو أنهم التقوا فجأة بوحوش صغيرة تسكنهم دون أن يدروا. تماسكتُ قدر استطاعتي. جمعنا العيون، أخرجنا الأولاد من الصالة. وصحوتُ من نومي أكثر فزعًا.

.. ولكن، ما الذي يمكن أن تفعليه حين تقول لك بنت لم تبلغ الثامنة من عمرها فجأة وهي تصرخ: هذه عيون ميتة، وأنا أريد عيني الحقيقة، أريدها الآن. الآن. وتسقط أمامكِ غير قادرة على السّيطرة على أعضائها المرتجفة، تفرفط كجناحي عصفور مذبوح؟

***

اعتقال جمال الذي لم يفرح برؤية ابنه سوى شهرين، وتزايد أوامر حظر التّجول، كانا سببين كافيين لكي يجعلا أمّي تنسى وجودنا ذات يوم، وتذهب في تأمل شبّاك الغرفة المطلِّ على حوْش آمنة، إلى درجة أنها جعلتنا نحسّ أن ثمة شخصًا يقف خلفها، لا يراه أحد سواها. وحين سألتُها: شو في؟

لم ترد.

وسألتها ثانية، وعندها انتبهت. قالت:

- سأحوِّل هذا الشّباك إلى باب. ليس من الضروري أن أدور من باب حوشنا إلى باب حوش آمنة كي أصل بيتها أو تصل بيتنا.

كنا كبرنا قليلًا، ولم نعد نتشاجر كثيرًا بسبب اسمها الذي كنتُ أصرّ أنه لي، وهي تصرّ أنه لها، بمجرد أن اكتشفنا أنه أحلى من الاسم الآخر، أو بسبب صالح. هذا الشِّجار الذي لم يكن يتوقّف حول من سترعاه منا. والحقيقة أن أختي لم تعد مهتمة بوجود لعبة حيّة لها، لأنني اكتشفت أن عدد صديقاتها يتضاءل، وأن ولدًا واحدًا يسكن بجانب دكان (المغربي) قد احتل مكان أربع بنات كنَّ لا يفارقنها.

لكن، سأعترف أن صالح كان يحبها أكثر مني، رغم أنني لا أعرف كيف كان يفرِّق بيننا، وحين أصبح له لسان مثل ألسنة البشر، كان السؤال الوحيد الذي لا يكلُّ ترديده: متى ستعود لميس؟!

فأقولُ له: أنا لميس.

- لا، أنتِ لميس الأخرى.

سؤاله هذا، كان كافيًا لإحداث ارتباكات كثيرة في حياة لميس، فبمجرد أن تسمعه أمّي، تصرخ في وجهي: اذهبي وفتشي لي عن أختك المفعوصة وهاتيها فورًا.

- رندة؟!!

- لأ. لميس. بدك تجننيني!

عندها أراه يبتسم، أرى صالح يبتسم، صالح الذي أصبح يُدرك أفضل الطرق وأقصرها لاستعادتها من الشّوارع وهو في مكانه.

ذلك لم يحدث بين ليلة وضحاها، فقد ضاع الولد مرتين، وفي المرّة الثالثة فقدنا الأمل في العثور عليه، وفي كلّ مرّة كنا نسأله: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ يرد: أدوِّر على لميس!

ذات يوم وقف على الباب ونادى: لميس، لميس. وكانت تُحدِّث سامر، فتى أحلامها. وحين أجابتْ: شو بِدَّك؟ قال لها: بحبّك يا لميس، بحبّك!

أسبوعًا كاملًا لم تحدّثني بعد اعتراف صالح المجلجل ذاك؛ كانتْ على يقين من أنني مَن دفَعَتْه لقول ما قاله: ومن أين لولد بهذا العمر أن يقول شيئًا كهذا لو لم تُوضع الكلمات كلمةً كلمةً في فمه؟!

وأقسم لها، أن ليس لي علاقة بالأمر، فلا تصدّقني، وتمرّ أيام أخرى قبل أن أُدرك أن الإحراج الحقيقي كان لسامر وليس لها. إذ ارتفع صوت أولاد الحارة الذين أصبحوا يقولون له: الناس في إيش، وإنت في إيش، الناس بتموت وإنت بتحبّ!

لكن صالح، بلغة "غزّة" هذه الأيام، صعَّد الأمر أكثر، فحين أدركَ أن سؤاله عنها لم يعد يأتي بها إليه، التجأ إلى وسائل أخرى، أقوى: ذات مرّة أحضرتْ أمي الشّاي من بيتنا لنشربه في بيت آمنة، وعندما انتهتْ من صبّ الشّاي في الكاسات، تناول صالح واحدة، وتناولتْ أمي واحدة، وتناولتْ آمنة واحدة، وما إن مددتُ يدي حتى صرخ بي: لا. هذه للميس. أصرَّت آمنة أن آخذها، فاندفع وأمسك "الكاسة"، في الوقت الذي كانت فيه يده الأخرى تقبض على الثانية. ساخنًا كان الشاي، رجته أمي أن يضع ما في يديه على الأرض، لكنه رفض وتراجع خطوات، كان أشبه بقطّة أنشبت مخالبها في الهواء. بعد قليل رأينا دموعه تتدفّق من عينيه بسبب الألم الذي تسبّبه له سخونة الشّاي، وخشينا أن نقترب منه فيندلق الشّاي على جسمه، فبقينا بعيدين.

لم تشرب آمنة الشّاي أو أمّي، وبقيتُ مُتجمِّدَة في مكاني خائفةً أرتجف، وكأنني السّبب، وظلَّ ممسكًا ما بيديه حتى عادت أختي.

تلك الليلة اندفعتْ أمّي نحوها تضربها بكل ما تطَالـه أصـابعها، وهـي تصرخ: أنا رندة، لكن أمّي لم تتوقّف إلى أن تَعبتْ فجلستْ مُلـصقةً ظَهرهـا بالجدار، كما لو أنها تدفعه للـوراء، كـما لـو أنهـا إذا مـا تحركـتْ سيـسقط، ويسقط معه البيت كلّه، العالم كلّه؛ وفي لحظة من لحظات يأسها القليلة التـي كنا نراها قالت: يا ربي، ما الذي فعلته حتى تُلقي فوق صدري جبال الهموم هذه، واحد في السجن، واثنان ملاحقان، وبنتان لا أستطيع أن أحكُمَهُـا أو أفرّق بينهما؟!

لم تعرف أختي بما حدث، لم تقل لها أمي شيئًا عن ذلك الـذي فعلـه صالح، ولم أقل لها، لأنني أحسستُ أنها قد تـشمتُ بي بعـد أن هزمتنـي بالضّربة القاضية على جبهة هذا القلب الصغير.. لكنها ذات يوم ستعرف..

***

أما نحن، فلم يكن يلزمنا الكثير من الذكاء حتى نعرف أن حال زوجهـا جمال، من حال أبينا، وحال أخوينا اللذين ظلّا يتشاجران طول الوقـت كـل واحد مـنهما يـدافع عـن تنظيمـه. يتـشاجران، دون أن يتـذكَّرا أن رأسـيهما مطلوبان لرصاصة واحدة. فتتدخل أمي لحسم الخلاف وهي تقول لهما: مش عارف على إيش بتتقاتلوا، ماهو، إذا كُنت مع (حمـاس) إسرائيـل بتقتلـك، وإذا كنت مـع (الجِهـاد) إسرائيـل بتقتلـك، وإذا كنـت مـع (فـتِح) أو مـع (الـشّعبية) أو (الدّيمقراطيـة) إسرائيـل بتقتلـك، وإذا كنـت مـع المقاومـة إسرائيل بتقتلك، وإذا كنت مع الاستسلام إسرائيل بتقتلك، وإذا كنـت مـع أبو عمّار إسرائيل بتقتلك، وإذا كنت ضـده إسرائيـل بتقتلـك، ، وإذا كنـت بتفتح الشّباك على شان تشوف شو صاير، بيجي قناص وبُقتلك. وإذا كنـت ماشي في الشارع أو نايم في بيتك وبس في حالك، بيجي صـاروخ مـن الـسّما وبقتلك!!! وعلى إيش إنتوا بتتقاتلوا والله ما اني فاهمة؟!

***

لقد مضى ذلك الزّمان الذي كانت أمي تقول فيه لآمنة وهي تراقبنا بطرف عينها: وجهكِ مفتّح هذا الصباح، هل جاء المهندس؟!

وتضحك آمنة، التي بقيت عروسًا في أعيننا حتى بعد أن أنجبت صالح، تضحكُ دون أن تُجيب.

فتعرف أمّي أن المهندس تسلّل لبيته، وتعرف أختي سبب الضّحك، فتضحك، فأقول لها زاجرة في الخارج ما إن نصبح وحدنا: وما الذي يجعلك تضحكين؟ الضحك من دون سبب قلة أدب.

فترد: ذات يوم ستفهمين وعندها ستضحكين على نفسك لأنك لم تكوني تضحكين!

- شو؟

- لا شيء.

***

فجأة أصبح على ليس أن تُلاحق سامر من حاجز إلى حاجز كي تطمئن عليه، تراقبه من بعيد بعيني ابنة الثالثة عشرة الممتلئتين هلعًا، وحين تحسّ أن الوضع أصبح أكثر خطورة، وأن تحذيراتها له تتلاشى مع تصاعد صوت الرصاص، أو حين يختطفه دخانُ قنبلة مُسيلة للدّموع، تخرج من مكمنها، إلى حدّ أن البعض أصبح يدعوها بـ "قوات التدّخل السّريع الفلسطينية". لكن سخريتنا هذه تحوّلت إلى خجل حقيقي من أنفسنا، حين استطاعت في إحدى المرّات أن تحمله على ظهرها وتجري به بعيدًا عن جنود حاجز (المِنْطَار) الذين اندفعوا للقبض عليه، أو الإجهاز عليه، بعد أن أدركوا أنهم أصابوه.

تحوَّلت لميس فجأة إلى بطلـة، وأصـبحتُ أكثـر فخـرًا بـأنني أختهـا. ولم أجرؤ على سرقة نصرها منها، بحيث تحاشيت الدّخول معهـا في أيّ معركـة حوْل الاسم لزمن طويل. وقال لها صالح: بحبِّك لأنك شجاعة.

***

ذات يوم عادت لميس من المدرسة، فوجدتْ صورة سامر على باب بيتنا، وفوقها عبارة بخطٍّ أسود عريض (نعي شهيد).

***

أصبحتْ حزينة، حزينة إلى ذلك الحد الذي لا يُحتمل، فقلتُ لها: لـميس، إذا أردتِ أن أكون أنا لميس، يومين، ثلاثة، عشرة، حتى تستريحي قلـيلا مـن أحزانك هذه، فسأكون.

وقالت لي: كنتُ أريد أن أقول لكِ الكلام نفسه، فأنت تبدين أكثر حزنًـا منّي لأنك لا تبكين!

حتى الشهداء لا يكبرون بهذه السرعة،

لا. لا يمكن أن تكون قد كبرتَ إلى هذا الحدّ

تقولُ لي إن الشهداء يعودون أطفالًا؟

هذه لا أعرفها، هل قلتُ لك هذا الكلام؟! لا أظن ذلك، قلتُ لك إن الأطفال الصغار يتحوّلون إلى طيور في الجنّة، أما الشهداء فهم طيور الدنيا الجميلة، أتعرف لماذا؟ لأنهم أكثر الناس حبًا للحرية، تظلّ تناديهم وتناديهم، يجرون وراءها، ولأنها تحبّهم تواصل اللّعب معهم، تعلو وتهبط فيصعدون خلفها وينزلون، يفتّشون عنها في كلّ مكان، وهم لا يعرفون أنها مختبئة في أجسادهم.

الجنود يعرفون هذا السر،

نعم الجنود هناك خلف الحواجز، في الطائرة المروحيّة في الدّبابة، القنّاصون فوق الأبراج يعرفون السّر، ولهذا السبب يصوّبون نيرانهم نحونا، نعم، هذا كلّ ما في الأمر، لا يصوّبون نحونا كي يقتلونا، يصوّبون نحونا كي يقتلوا الحرية التي تختبئ فينا، الحريّة التي نطاردها طَوال عمرنا كي نمسك بها. هل فهمتَ؟

صالح، يا صالح! ها قد عاد للنّوم من جديد! هل مكتوب عليَّ يا ربي أن أواصل الصراخ في آذانهم كي يستيقظوا؟

يا صالح.

ما الذي تقوله يا جمال؟! كيف أتركه يواصل النّوم، أشياء كثيرة تنتظر أن نقوم بها، هل تعرف ما الذي يعنيه العرس؟ يعني أن تُحضِّر له جيدًا حتى لا تُسوِّد وجهكَ مع الناس. عليه أن ينهض لنذهب لشراء بدلة له، بدلة تليق به. لا يمكن أن آخذ مقاسه وهو نائم، أتذكَّرُ ما الذي حصل قبل شهر حين أخذتُ مقاسه لكي أشتري بيجامة له، وحين عدتُ وجدته قد أصبح أطول؟!! مع أن آخر واحدة كنتُ اشتريتها له كانت أصغر من نصف هذه!

قلتَ لي يومها: إنكِ لم تأخذي قياساته بشكل صحيح. هذا كلّ ما في الأمر.

وحين حملتُ البيجامة واستبدلتُها ببيجامة أكبر، ما الذي حدث؟! لقد كانت البيجامة الثانية صغيرة أيضًا!

لا. هذا الأمر ليس في قدرتي، بين ذهابي وعودتي يكون الولد قد أصبح أطول وأعرض. لا. أنا لا أشكو من هذا، الحمد لله على ذلك، ولكنني لا أستطيع أن أمضي العمرَ على الطريق بين محلات بيع الملابس وهنا.

صاحب المحلّ قال لي: يا أختي هذه أكبر بيجامة موجودة في السُّوق.

- ألا يوجد لديكَ بيجامات رجالية؟ قلتُ له. فأكّد لي أنه لا يوجد لديه إلّا بيجامات رجالية أصلًا!

لقد درتُ غزّة كلَّها ذلك اليوم، وكلما أتيتُ ببيجامة كانت أصغر بكثير.

ذلك الأمر تحمَّلتُه، لكنني لا أستطيع أن أتحمَّل الأمر إذا ما كان متعلِّقًا ببدلة العرس.

يا صالح

يا جمال

يا مصطفى، أنتَ خال العريس وعليك أن تذهب مع الجاهة لتطلبَ البنت، ما الذي حدث لكَ؟! هل تريد أن تقولَ لي اذهبي وحدك، أنتَ الذي لم تتركني وحدي في أيّ يوم من الأيام؟!! كنتُ أهمس أيام زمان فأجدكَ فوق رأسي. وحتى قبل أن أهمس. أعرف أنك مُتْعَبٌ؛ من يومك كنتَ مُتعَبًا، ولكن هذا لا يبررُ لكَ أن تواصل نومكَ كأنكَ لا تسمعني.

ما لي أحدٌ غيرك يا مصطفى، أنت خال العريس، وصالح يحبّك، انهضْ وقلْ له أن ينهض، لا بدّ أن آخذه معي لشراء البدلة، الزواج ليس مزحة، وهناك بدلة العروس؛ كيف نسيتُ هذا؟ ما الذي يحدث لعقلِكِ يا آمنة؟! تُفكّرين في بدلة ابنك ولا تفكّرين بثوب العروس التي ستغدو ابنتك أيضًا..

***

سأغيب قليلا. سمعتم، قليلًا، ربع ساعة، أو نصف ساعة على الأكثر، عليَّ أن أستشير رندة في المسألة، ربما يكون لها رأي، ولتسأل هي لميس، البنات يفهمن ما يخصّهنَّ أكثر، ربما كان في نفسها فستان عرس معين. فهي تنتظر هذا اليوم من زمن طويل. وبدل أن أدور وأدور بين المحلات بحثًا عن فستان، قد يعجبُها أو لا يعجبها، نذهب معًا ونشتريه.

أنا نفسي فعلتُ ذلك، ولكنّني كنت مضطرة، لأنك يا جمال كنتَ في مكان آخر، وبيننا حواجز كثيرة، دوريات وعَزْلُ مناطق عن مناطق..

لم يتغيّر شيء من يومها..

لم يتغيّر شيء، سوى أنني حبلتُ وولدتُ وحبلتُ وولدتُ وأصبح لدي ولد وبنت!

يومها قالوا إن عرسًا كعرسكما لا يمكن أن يتمَّ. ما دام العريس في منطقة والعروس في منطقة، وما بينهما كلّ هذه القوّات.

قلتُ لهم، بعينيَّ هاتين رأيتُ أكثر من عروس تعبر الحواجز والجنود ينظرون إليها من خلف أكياس الرّمل ومن طاقات أبراج الدبابات. وسأفعل مثلهن. وحين فعلتُ، حين لبستُ ثوبي الأبيض، أعادوني. قال لي الجندي: أعراس ما في! أعراس ممنوع!

فقلت لهم: وما هو المسموح به هنا؟! حتى الجنازات تمنعونها أيضًا حين يكون بإمكانكم فِعْل ذلك، لا تريدوننا أن نُزَفَّ لا في أعراسنا ولا في جنازاتنا.

لوَّحتُ لكَ على الجهة الأخرى للحاجز، لوَّحتَ لي، وتفرَّقنا.

ثلاثة أيام كاملة لم يتوقّف فيها بكائي، إلى أن جاءني الخبر منك يا جمال؛ قلتَ لي ابقي في مكانك، أنا الذي سيأتي.

لا، دخيلك!! أيّ شيء ما عدا هذا، أتريدهم أن يقتلوك؟ أتتذكّر أم محمد تلك التي حدَّثتك عنها، تلك المرأة التي ذهبتُ لأُبارِكَ لها بزفاف ابنها، واستقبلتني أمام الباب كما استقبلتْ غيري وهي تزغرد وتغنّي، وحين راحتْ تبكي قلتُ في نفسي: هذا البكاء ليس بكاء فرح يا آمنة. وكأن المرأة التي بجانبي سمعتني، فقالت لي لقد استشهد قبل ساعتين. قبل ساعتين من عُرْسه تصوَّر! ألم يكن بإمكانهم الانتظار قليلًا، يومًا واحدًا، يومين؟ ما الذي كان سيحدث إذا كان عدد الناس الذين قتلوهم أقلَّ، أقل بواحد فقط، لا غير، هل بذلك سيختفي هذا الجحيم الذي زرعوه فوق رؤوسنا ويسقونه بالرصاص والقنابل ويحرسونه بالطائرات منذ خمسين عامًا وأكثر؟ هل سيهجر النومُ أعينهم وتؤنبهم ضمائرهم لأنهم لم يقتلوا كما عليهم أن يقتلوا؟!

لا، لا أريد أن تأتي.

وطمأَنوني،

قالوا سنحضره في سيارة إسعاف، اطمئني.

كيف أطمئن، ألا يفتّشون سيارات الإسعاف؟ ألا يطلقون النار عليها؟

قالوا: سنجد طريقة.

لقد كنتَ يا جمال على مسافة قريبة من الحاجز، ولولا رحمة ربنا لأصابك ما أصاب ذلك العريس، لترمَّلتُ قبل أن أتزوّج.

صمتَّ طويلًا يومها على الطّرف الثاني.

ألو، ألو، رحتُ أصرخ. وبعد زمن خيّل إليَّ أنه العمر كلّه، قلتَ لي: كيف لم أفكر بذلك؟ هل أنتِ على استعداد أن تتزوجي من شهيد؟!

ما هذا الكلام الذي تقوله، هل جُننتَ؟ أريدك حيًا وحيًا.

فقلتَ: الشهداء أحياء أيضًا، أليس كذلك؟! فقلتُ لكَ: نعم أحياء ولكنني أريدك كما أنتَ الآن، حيا كما أنت الآن، وليس حيًا كشهيد.

- اطمئني، اطمئني. لن أسمح لهم أن يجعلوكِ تنتظرين أكثر من هذا. غدًا مساء سنكون عندكم، (العيلة بالليله). البسي ثوبكِ، ثوبك الأبيض وانتظريني.

قلتُ لمصطفى هذا الكلام، فقال: لي هل جنَّ خطيبك؟ سيقتلونه.

انتظرتكَ، وانتظرتك؛ لم تأتِ، وجاء واحد ليقول لي إنك في المستشفى، في مستشفى غزّة المركزي. دخلتُ لأخلع ثوب العرس، فقال لي: إنه يريدكِ أن تأتي كما أنتِ.

فرُحتُ أبكي، أبكي كما لو أنني فقدتُكَ.

في المستشفى احتضنتُكَ بأبيضي الذي استحمَّ بالدم، وكان آخر ما كنتُ أتوقّعه أن أراك تبتسم كما لو أن شيئًا لم يحدث.

تبتسم!! سأقتلك، أهذا وقتٌ تبتسم فيه؟!

قلتَ لي لقد ألهمتُكَ الفكرة، ولذا، تسللتَ إلي داخل نعش! وكان الجميع يبكون عند الحاجز، وهم يحيطون بك، ولكن ليس حزنًا، بل خوفًا عليكَ أيضًا.

الجنود لم يقتنعوا بذلك، أرادوا أن يروا ما في النّعش، وحين قيل لهم إن ذلك مستحيل، قالوا للجميع، حسنًا، ابتعدوا، وصعد أحد الجنود حيث أنتَ، وحدك، ممددًا في العتمة، استلَّ حربته وغرسها بين شقوق الخشب، إلى أن غاصتْ في اللحم، وعندما لم يسمع صراخًا، نزل من العربة، لكن شيئًا ما أعاده. غرس الحربة ثانية في مكان آخر، تأكّدَ من أنها استقرتْ داخل اللحم في أعمق نقطة يمكن أن تبلغها، وسحبها ثانية من جديد.

وحين هبط غرس الحربة في كيس رمل.

بفزع أدرك الجميع ما حدث، وتصاعد فزعهم عندما رأوا في الضوء الشّاحب آثار دم على الكيس.

هل رأى الجندي ذلك، هل كان يعرف أن حربته غاصتْ في لحم كائن حيّ، أم لم يخطر ذلك بباله، هل كان فرِحًا بتعذيب ميت في نعش كما يكون فَرِحًا بتعذيب امرأة حامل تلد أمام الحاجز؟

لكنك لم تصرخ. وبدل أن يأتوا بكَ إليّ هنا، حيث أنتظر، أتوا إليّ وحملوني إليكَ في المستشفى.

كم عريسًا يمكن أن يحتمل طعنتين مثلهما من أجل عروسه؟!

وتسألني لماذا أحبّك إلى هذا الحد؟ لماذا لا أستطيع الابتعاد عنك؟

***

يا صالح

يا جمال

يا مصطفى

وبعدين؟

أنا رايحة، سأشتري البدلة، حتى لو كان الجاكيت نصف كُم، والبنطلـون شورت!

لكي نشتري ثوبَ الزفاف،

كنتُ قادمة إليكِ لنذهبَ معًا، أنا وأنتِ والعروس. من حقّها أن تختاره بنفسها، أليس كذلك؟ قالت لي.

قلتُ لها: نعم.

- كنتُ قادمة ولكنني في الطريق سمعتُ أن (أبو عنتر) استشهد فقلتُ أذهب لأعزّي أهلَه.

- مصطفي الرّملاوي؟ سألتُها دَهِشةً.

- لا أعرف. قالت لي آمنة. أعرف أن اسمه أبو عنتر. أضافتْ.

- ومَن يقتُل أبو عنتر؟ سألتها وأحسستُ بسذاجة سؤالي التي لا حدود لها.

- ولو يا رندة، ومن يقتل الناسَ هنا غيرهم؟! كان يمرُّ قربَ مفرق الشهداء. القذيفة جاءته مباشرة، قذيفة دبّابة وأطارت وجهه. لم يعرفه أحد، ثم عرفوه من ثيابه، هل الثياب أوضح من الوجوه؟!

- الله يرحمه.

استعدتُ صورتَه، صورةَ الرّجل الأربعيني بثيابه الرَّثّة، الرّجل الحافي الذي يتنقَّل بين بسطات الخضار في المخيم حاملًا كيس خيش على ظهره يزجّ به ما تبقى من فضلات الفواكه التالفة.

- قلت لنفسي، لا بدّ أن تذهبي يا آمنة، فمَن يمكن أن يُعزِّي بوفاة (أبو عنتر). سألتُ عن بيتهم، فقالوا لي إنه كان يعيش وحيدًا في هذه الغرفة، وإنه كان يغيب عنها أيامًا، وسألتني امرأة: بتقربي له؟ أجبتها: نعم. فقالت لي المرأة: البقية في حياتك. عزّتني! صحيح أن الله حرمه نعمةَ العقل، لكنه كان عاقلًا إلى درجة أنه لم يؤذِ أحدًا. سألتُها: ومن أين تخرج الجنازة؟ قالت لي: من المستشفى، من مستشفى الشفاء. ذهبتُ إلى هناك، والحمد لله وصلتُ في الوقت المناسب. رأيتُ الناس هناك كثيرين (أمّة الله!) همستُ لنفسي لا بدّ أن هناك شخصًا مُهمًا استشهد أو مات، وحين سألتُ أحد الشباب، ومن أين سيخرجون بجنازة أبو عنتر؟ قال لي: هذه جنازة أبو عنتر! بكيتُ يا رندة. قلتُ الدّنيا بخير. أبو عنتر الذي كنتُ أظن أن لا أحد سيتذكّره كانت جنازته كبيرة إلى هذا الحد، وقلتُ نحن أولاد حياة، أقصدُ شعبنا، وإلّا لكانوا هزمونا منذ مائة عام.

***

.. عرفتُ أن الجنود احتجزوا جثمانه ساعات. قالوا إنه كان يحاول زرع عبوة ناسفة عند الحاجز!

أبو عنتر؟! عليَّ أن أكون مجنونة لأصدِّق هذا الحكي.

حين سارتِ الجنازة مشيتُ وراءها. ومشتِ الآلافُ، آ والله، آلاف، من (الشِّفاء) إلى (النصيرات) إلى بيته، ووجدتُ أيضًا هناك أناسًا زي التراب يبكون عليه، فتأكّد لي أن الدنيا بخير فعلًا. صلّوا عليه في الجامع الكبير في المخيم، خرجوا، فتبعتُهم إلى أن وجدتُ نفسي في مقبرة الشهداء.

هناك تذكَّرتُ أنني كنتُ قادمةً إليكِ، لكنني قلتُ: ما دمتِ وصلتِ يا آمنة إلى هنا، فلتطمئني عليهم! ذهبتُ، وأنا أقول لعلّهم استيقظوا، لكنّهم كانوا نائمين. كما تركتهم، تصوّري! فابتعدتُ وأنا أسير على رؤوس أصابعي. لا أحد يعرف الآن ما يحدث حين يستيقظ الناس يا رندة، توقظُ الأم ابنها وتقول له: روح اشتري لي كيلو بطاطا، وبعد خمس دقائق يعود للبيت شهيدًا. أنتِ تعرفين الشهيد سمير عليوة، لم يخرج لشراء بطاطا لأمّه، فهو أبٌ وله سبع بنات وولد، خرج لكي يوزِّع بطاقات الدّعوة لعرس أخيه محمد، ولم يعد لأسرته إلا شهيدًا.

تعرفين..

ثم صمتت: شو بدّي أقول لأقول. أنتِ تعرفين أكثر مني. ألستِ صحافية.

كنتُ أريد أن أقول لها إنني صحافية مع وقف التّنفيذ، لأنّ أحلامي لم تتحقّق، لأنها ربما كانت أكبر بكثير من رأسي الصغير. إلّا أنها فاجأتني: أعرف أنكِ تكتبين. وأنك ستنشرين ما تكتبينه ذات يوم!

– من قال لكِ ذلك؟

– وَلْ يا رندة!! لم أكن أعرف أنك تستهينين بخالتك آمنة.

وحين رجوْتها أن تخبرني. حلَّفتني، وبعد أن تأكدتْ من أنني أقسمتُ اليمين صادقةً، وأنني لن أبوح باسم من أفشى السِّر، دون أن تكفَّ عن قراءة عينيَّ، صمتتْ قليلا: ثم همستْ: لميس.

– لميس!

– لميس؟ ما أنا لميس!

– وهل تظنين أنني لا أعرفها، وهي التي ستصبح زوجة ابني، أو أنها ستخبئ شيئًا عنّي؟

وتلفتتْ حوْلها: هل هي في البيت؟

- لا، خرجتْ!

مِن الغرفة البعيدة جاء صوت جدّتي: مع مين بتحكي؟

- مع حالي يا ستّي.

- الله يردِّلّك عقلك يا بنتي!!

رأتنا أمّي، قطعتِ السّاحة الترابية إلى أن وصلتْنا: آمنة؟ تفضلي. لماذا تتحدّثان على العتبة. أدخلي.

دخلتْ آمنة، أغلقتُ الباب وراءنا. وظلّتْ أمي تسير إلى أن دخلنا تلك الغرفة التي تحوّل شباكها إلى باب يُفتح على حوش بيت آمنة.

- قومي اعملي شاي. قالت لي أمي؛ وقبل أن أنهض عن الكرسيّ، استدركتْ: ظلّي أنتِ، سأذهب وأحضِّره بنفسي. وذهبتْ

***

منذ زمن بدأتْ أمي تدرك أن آمنة لا تستطيع التحدّث على راحتها إلا معي، وكان يسرُّها ذلك، وحين نخرج آنا وآمنة، كنتُ ألمح ذلك الاطمئنان الذي يغمر وجه أمّي.

- مع آمنة أعرف أنكِ ستكونين بخير.

كانت أمّي تعرف أين نذهب عادة، لأنها كانت ترافقنا في أحيان كثيرة، ولم يكن هناك مكان نذهب إليه أكثر من بيوت عزاء الشّهداء.

- الواجب واجب. تقول لي آمنة. يجب أن يحسَّ هؤلاء الناس أنهم ليسوا وحيدين بعد أن فقدوا أبناءهم وآباءهم. ليس هناك أصعب من فقدان الابن أو البنت أو الأخ أو الزّوج الذي تحبّين، أو أي عزيز عليك. والأدهى

من هذا الفقدان هو موعده، إنه يأتي في الوقت الذي تتوقعينه أن يأتي فيه تمامًا، لأن هذا الوقت هو كلّ لحظة، لكنه يكون مفاجئًا دائمًا. فهمتِ؟

- هل تسمحين لي بكتابة هذا الكلام؟

- أيّ كلام؟

- الذي قلتيه الآن؟

- آ، باني على حقيقتك!

ثم تصمتُ: وهل مثل هذا الكلام يُكتَب؟!

ثم تسترق نظرة لا أستطيع فهم معناها إلى حوْش بيتها، تعود بعدها لتحدِّثني كما لو أن البيت الذي نظرتْ إليه ليس لها.

- هل لميس هنا؟

- لا، خرجت!!

- خرجت!! ألم تعرف بأنني قادمة؟

- نسيتُ أن أقول لها.

- نسيتِ؟!!

- يا رندة، أهذا من الأشياء التي يُمكن أن تُنسى؟!!

- سامحيني.

- طيّبْ أمّك، هل فتحتِ الموضوعَ معها؟

- تعرفين، أمّي موافقة، دائمًا تقول لي: ومن أين لنا بعريس أفضل من صالح وبأهل أفضل وأشرف من أهله؟ لكنّها أحيانا، تتذكّر أبي، تتذكّر أخوي، تتذكّرني، فتقول لي: وهل يُقام عرس في بيت حين يكون الأب محبوسًا والأولاد مطاردين. سنبكي ونحن نتذكّرهم أكثر مما سنفرح بالعِرْسان.

- معها حق، ولكن، لتنظر إليَّ، هل هناك أكبر من مصيبتي؟! ولكنّني دائما أقول، الدّنيا حياة من موت، وتعرفين الباقي.

- أعرف، إلا أن الناس لا يتحمَّلون مآسيهم بالشّجاعة نفسها.

- في هذه معكِ حق.

***

حين عادت أمّي بالشّاي، وضعَتْه أمامنا. ثم استدارتْ لتخرج. فسألتها آمنة: لماذا لا تشربين الشّاي معنا؟

- مشغولة. أنتهي من الغسيل وأعود.

- ولماذا لا تساعدكِ رندة، أو لميس، لميس التي أصبحت الآن عروسا؟!

- الله يرضى عليهن. قالتها أمي وهي تغادر البيت دون أن تستدير بوجهها إلينا!

***

بعد خروج أمّي، تهمس آمنة لي.

- على الأقل، ذكَّرْتُها بأن لميس أصبحتْ عروسًا. هذا نصف الطّريق كي نطلب يدها (رسمي).

هززتُ رأسي موافقة.

- شوفي، اليوم تأخّرنا، ولميس غير موجودة، والصّحيح، استشهاد أبو عنتر أحزنَّي. صحيح يا ربي أنه ارتاح، ولكن ألم تكن هناك وسيلة أفضل تريحه بها، غير أن يقتله الجنود بقذيفة دبابة؟!

صمتتْ قليلًا.

ثم راحت تردّد: استغفر الله. حين همستُ لها محاولة مواساتها: يمكن لأن الله أراد أن يكرِّمه بالشّهادة!

- فِكْرِك؟!!

هززتُ رأسي.

وقبل أن تُنهي شايها فوجئتُ بها تنهض: إلى أين، بدري ؟

- لا، سيقلقون عليَّ. الدّنيا ليَّلَتْ. ونادية تعبتْ كما ترين. وتشير لصغيرتها نادية التي أدركتْ حزن أمها قبل أن تُدرك أيّ شيء آخر.

أراقبها تتّجه نحو الباب الخارجي. فأسألها أن تخرج من الباب الذي يصل الغرفة بحوْش بيتها. فلعلها تعود لعادتها القديمة، رغم أنني أعرف جوابها.

- إذا عدتُ من هنا، فإنني لا أحسّ أنني قمت بزيارة. أحس بأنني بقيتُ في البيت، ولم أخرج. وتعرفين، هذه هي الخطوات الوحيدة التي أخطوها وأقول إنني زرتُ أحدًا.

أمضي معها نحو الباب،

أفتحه،

تخرج،

وأظل أراقبها حتى تختفي..

أعود، أدخل الغرفة حيث كنّا، ومن الباب الذي يوصل بيتنا ببيتها، الباب الشّباك، أراها، فتلوّح لي، تتّجه يدها بالمفتاح إلى باب الغرفة، واسمع طقطقة القفل. تلتفتُ إليّ، وتبتسم قبل أن تختفي.

ابتسمُ، لكنني لا أستطع أن أردَّ بابتسامتي الدّموعَ التي أفلتتْ من عينيّ!

ما الذي يقصفونه اليوم؟

كنتُ عائدةً من عند أم جواد، حين سألتُ الناس، ما الذي يقصفونه اليوم؟ وقبل أن يجيبَ أحدُ الأولاد، قلتُ له أعرف. لا تقلْ لي. ألم يقصفوا المقبرة؟!

فقال لي: صحيح يا خالتي.

ولدٌ جميل وطيبٌ مثلكَ، مثلكَ حين كنتَ صغيرًا يا صالح. دعوتُ له: الله يخليكْ لأمّك.

تأملته كثيرًا، ثم قلتُ لنفسي أنسيتِ ما حدثَ يا آمنة؟

وجئتُ راكضة..

ألم أقل لكم: لم يعد هناك أيّ مكان آمن؟ أتعرفون، لم يعد هناك أيّ مكان آمن! تتذكَّرون مصطفى الرملاوي - أبو عنتر؟ آ، مصطفى ما غيره؛ قتلوه على مفترق الشهداء. قلبي يوغوشني، ويقول لي: ما داموا وصلوا لقتل مصطفى، الله يرحمه، فلماذا تستبعدون أن يقتلونا جميعًا.

حتى مقبرة الشهداء لم تعد آمنة يا آمنة، ستة صواريخ، ولماذا؟ هل سمعتم ذلك الهدير؟ لقد هزَّ غزة بأكملها.

لم يعد هناك أيّ مكان آمن.

قبل قليل مرَّ عليّ "عزيز"، "عزيز" ما غيره! صبَّح، وسألني هل أنتِ محتاجة لشيء يا خالتي. قلتُ له: الله يرضى عليك ويخليك لأمّك. لا يا حبيبي.

فقال: على أيّ حال لن أكون بعيدًا.

قلت له: ستحفرون قبورًا جديدة؟

هزَّ رأسه: بعد قليل يأتي الشباب.

تعرفون، هذا الولد مُعَذَّب بحفر القبور. يقولُ لي دائمًا، تعرفين يا خالتي آمنة: إنهم يفاجئوننا، ويقتلون شبابنا كلَّ يوم، ويجب ألا نُفاجَأ. يجب أن تكون هناك قبور جاهزة. أعرف أننا في الفترة الأخيرة حفرنا قبورًا أكثر، ولكنَّهم قبل أيام فاجأونا بصاروخ قتل ثلاثة، وحين تجمَّع الناس لإنقاذ من في السّيارة والشارع أغارت طائراتهم وقتلتْ سبعةً وأصابتْ خمسين.

قالوا لي إن أحد المصابين فقد ساقه، وبعد بحث طويل عثروا على السّاق، لكنه ما إن رآها حتى راح يصرخ: ألم تلاحظوا؟ كم ساقا يُمنى يمكن أن يكون لديّ؟!!

مجزرة يا خالتي.

هناك شباب بقينا يومين نُلملم لحمَهم عن الحيطان وسطوح البيوت، وحين جمعناهم في أكياس كنا نعرف أن أحدًا لا يستطيع معرفة لحم هذا من لحم ذاك؟ فقلت لهم لماذا لا ندفنهم في قبر واحد. رفضوا. ولكن قولي لي يا خالتي آمنة: ألم يكن ذلك أفضل، ولماذا نُشغل الشهداء بالبحث عن أجزائهم يوم القيامة داخل قبور أخرى؟!

لم أعرف بماذا أجيبه.

قال: أتعرفين ما الذي أتمنّاه يا خالتي؟

- ماذا يا ابني؟

قال: أن يجيء يوم لا نكون مضطرين فيه لحفر قبور احتياطية.

- ليس الأمر بيدنا. قلتُ له. ولكن إذا كان لا بدّ لنا من أن نحفر القبور قبل موت الناس، فإن علينا أن.. وتلعثمتُ، قبل أن أنطقها: أريد أن أوصيك، وما بدك توصاي، يا ريت لما تحفروا القبر تجعلوه واسع حتى الشّهيد يرتاح فيه، وعميق حتى لا تصله الصواريخ إذا قصفوا المقبرة.

وفجأة راح يضحك ويضحك، ثم قال لي اطمئني يا خالتي، والله انني أحفر القبر كما لو أنني أحفره لنفسي!!

- الشَّر بعيد.

- يا ريت يكون بعيد.

ابتعدَ خطواتٍ، ثم استدار، كانت الشمس خلفه ساطعة، لكنني رأيتُ وجهه!!! فركتُ عينيَّ، وقلت هذا لا يمكن أن يحدث، لكنني حين فتحتهما ثانية كنت أرى وجهه أيضًا. وسمعته يقول لي: بس، لا سمح الله، إن مُتّ، لا تنسي أن تمري عليَّ، وتحكي معي، فأنا أعرف، ولا ألوم الناس، إنهم مشغولون دائمًا بمن سيموت، وليس بمن مات. ومعهم حق. حتى أنا، أنظري، مشغول بالذين سيموتون!

***

عندما رأيتُ عزيز يحفر أوّل مرة، قلتُ له: ما الذي تفعله هنا؟ أتذكرون؟

فقال: أحفر قبورًا!

قلت له: وما الذي يمكن أن تجده في جيوب الشّهداء؟

قال لي: ألا تعرفين؟

- لا، لا أعرف. قلتُ له. وقد حسبته سارق قبور مثل أولئك الذين نسمع عنهم أو نراهم في الأفلام.

قال لي: اطمئني، الذين يسرقون الشّهداء، ليسوا مضطرين لنبش قبورهم، إنهم يهيلون التراب عليهم أكثر. أتعرفين لماذا؟

- لماذا؟

- حتى يطمئنوا أن الشهداء لن يعودوا! فهمتِ؟

قلتُ له: فهمتُ. وأحببته.

ثم راح يضحك بين القبور.

قلت له: وطِّي صوتك؟

فقال لي: اطمئني، هؤلاء هم أكثر الناس حُبًّا للضّحك، لأنهم أكثر الناس حبًا للحياة.

راح يسير بين الشَّواهد، وكأنه يعرف طريقه من ألف عام، رشيقًا، ودون أن ينظر أمامه، حتى وصل إليّ.

أحببته عزيز هذا، وقلتُ: لا يدرك الإنسان دروس الحياة إلا حين يعمل، سواء كان هذا العمل هو حفر القبور أو بناء القصور.

في إحدى المرات، قلتُ له: يا عزيز يا خالتي. الصّباح رباح، يُمكنكم أن تكملوا العمل غدًا.

كنتُ مُتعبةً، أريد أن أنام، وأريد أن تناموا. وخيّل إلي أنهم سيحفرون طوال الليل. فسألني: وهل تضمنين أنهم لن يقتلوا أحدًا الليلة؟

فقلت له: لا.

فقال: احتمليني إذن.

تذكرون، بعد نصف ساعة من هذا الكلام، في تلك الليلة من تموز؟ والدّنيا نار، كأن الشمس لم تغب، جاءت طائرة إف 16 وألقت صاروخا زنته ألف رطل وقتلت الشهيد صلاح شحادة وستة من عائلة "مطر" وحدها. تذكرون، يوم الجنازة لم يصدّق أهل غزة أعينهم، حين أمطرت السماء ثلاث مرات، ثلاث مرات في يوم واحد، في شهر تموز! شهر الحريق!

وذات مرّة قال لي: يا خالتي، صرتُ أخاف من نفسي، وصرتُ حزينًا أكثر.

فسألته: ولماذا يا بني؟

فقال: لأنني أصبحتُ أحسُّ باللحظة التي يجب عليّ أن أتركَ فيها أصحابي، أو فِراشي لكي أحفر قبورًا جديدة، لأنني أصبحتُ أشعر في لحظة ما، أن هنالك موتًا قادمًا في الطريق، موتًا أكثر، وما يعذبني أنني لا أعرف أيّ طريق سيسلك، لأسبقه وأحذِّر الناس. وقال لي: اليوم حفرتُ قبرًا، وكان التراب يستجيب للفأس بسهولة غير عادية. وأخذني من يدي حتى أراني القبر.

- أنظري، ههنا صخور في هذا القبر، وصخور في هذا القبر، ما الذي يعنيه أن يكون هذا القبر الذي يقع في وسطهما ليِّنًا إلى هذا الحدّ.. كلّه تراب؟

قلت له: الله يعلم!

فقال لي: وأنا أحسّ!

تعرفون، بعد يومين استشهد.

قال لأصحابه عند المنطار: اسبقوني.

سألوه: على وين؟

فقال: على خالتي آمنة. قولوا لها دلِّينا على القبر الذي حدَّثك عنه عزيز!

دائماً أقف محتارة

أمام تجليات الناس، بعضهم من كبار السِّن، من الأميين الذين لم يـذهبوا لمدرسة في أيّ يوم من حياتهم، لكنهم فجأة يقولون كلامًا عميقًا إلى حـدّ أن أيّ متعلِّم لا يستطيع قول نصفه. ما زلتُ أتساءل كيف يحدث ذلك؟! إنهـم يقولون تلك العبارة كما لو أنهم فكّروا فيها طَوال حياتهم، مع أنني سـأكون دهِشةً، أيضًا، لو قـال لي أحـد إنهـم سـمعوها وحفظوهـا عـن ظهـر قلـب وخبأوها لهذا الموقف أو ذاك، لأن عبارة كهذه مـن الـصّعب أن تُحفـظ، مـن الصّعب أن يقولها شخص آخـر لم يعـشها، عبـارات لا تُلقـى عـلى اللـسان ليلفظها بعد ساعة أو سنوات.

وقلتُ: إنهم يشبهون الناس الموجودين في الروايات. حين يكـون هنـاك شخص في الرّواية، لا يعمل الروائـي عـلى كتابـة كـلّ مـا يفكـر فيـه ذلـك الشخص طَوال النهار، إنه يساعده على قول أجمـل مـا فيـه، ولـذلك نُفاجـأ بالأمر. ونحبُّ الشّخص في الرواية، كما نحبّ الشّاعر ربـما؛ نحـن نعـرف، ولكننا نتناسى أن الشّاعر يأكل ويشرب ويشاهد التلفزيون ويحلم ويُلاعـب أو يُغاضب أو يسمع موسيقى أو يبول. ولكننا نستبعد ذلـك كلّـه ولا نـرى

من الشاعر إلا شِعْره، ونحبه لهذا أيضًا، ولهذا السّبب بالذات يصبح في أعيننا شاعرًا، كما تصبح الشّخصيةُ شخصيةً في الروايات.

كنتُ أقرأ رواية (أم سعد) وأقول من أين لامرأة بكلِّ هذه الحكمة؟ نعم (أم سعد) أفضلُ مِثال. ولكن خطرَ لي أن أسأل: ما الذي تفعله أم سعد خارج رواية غسان؟! كيف تمرض وكيف تفرح؟ ما الذي فعلته في حياتها خارج الصفحات التّسعين للرواية؟

أعرف أن امرأة مثل (أم سعد) ستكون رائعة دائمًا، لكنها قد لا تكون رائعة بالمقدار نفسه قبل عشرين أو ثلاثين أو أربعين سنة، ربما كانت مثلي، مثلنا، ولكن هذا لا ينفي سؤالي: كيف وضع غسان أجمل ما فيها في الرواية؟ هل لأنه حين التقاها أنِسَتْ إليه روحُها وأحبَّته كأنه سعد ابنها، وعند ذلك فاضت أحاسيسها وأفكارها كما لو أنها تُحدِّثُ روحها؟ أم لأن الروايات لا تكون روايات إلا إذا كانت هكذا، وشخصياتها لا يمكن أن تكون شخصيات إلا إذا كانت هكذا؟ تقول ما يجب أن يقال في الوقت الذي يجب أن يقال فيه هذا الكلام بعينه وليس أي كلام سواه، وتختفي لتعود ثانية وتقول ما يجب أن يقال في موقف آخر.

كم صفحة كان على غسان كنفاني أن يكتب لو أراد أن يحكي حكاية أم سعد بتفاصيلها الدّقيقة؟ وهل كنا سنحبّها لو قرأنا حياتها في ألف صفحة أو ألفين؟ هل كنا سنحبّها مثلما أحببناها في التسعين صفحة؟ وهل هي كاملة هنا لا ينقصها شيء، لا لشيء إلا لأنها تملأ اللحظةَ، في حين يُمضي الناس أعمارهم خارج لحظاتهم؟

ستُجنِّين قلتُ لنفسي. أنتِ التي لم تستطيعي نشر تحقيق واحد من التحقيقات الصحفيّة التي تكتبينها وتُرسلينها للصّحف فترفضها واحدًا إثر آخر.

أحدهم قال لكِ: لا يمكن أن يكون الأطفال الشهداء، أو غير الشهداء يفكّرون على هذا النّحو!

- لا، إنهم يفكِّرون هكذا، وأعمق أيضًا، لكن مشكلتكم أنكم حين تقرأون ما كتبتُه عنهم، ما قالوه، تكتشفون أن هؤلاء الأطفال يفكِّرون أفضل منكم، وأن الأمهات الحزينات يفكِّرن أفضل منكم، لأنكم أولاد القواميس لا أولاد الحياة! لأنكم تتصوَّرون - بامتلاككم لمفاتيح النَّشر - أنكم الأكثر حكمة. وتنسون أن المفتاح نخبئه عادة تحت السِّجادة التي نمسح بها غَبرة الطريق ووحْلها عن أرجلنا أمام العتبات!!

حدثَ ذلك منذ شهور، وعندها أدركتُ أنني لن أستطيع النّشر في هذه الصحيفة طَوال حياتي ما دام ذلك الصّحفي فيها. لكنني بعد أن أصبحتُ على بعد أمتار من مبنى مكتب الجريدة، أحسستُ بنفسي قويةً، ويمكن القول عظيمة!! كما لو أنني استطعت الوصول إلى ذلك التّجلِّي الذي أُحسُّه في هؤلاء البشر أو أبطال وبطلات الروايات، وإلاّ، من أين جاء لي مَثَلُ السّجادة التي نمسح بها أقدامنا؟! لقد حددتُ له حجمه تمامًا، هذا الذي يرى بأنه يُمسك بيديه مفاتيح أفواهنا وقلوبنا، ما يجب أن نقوله وما لا يجب أن نقوله، كيف يُقال وكيف يُكتَب، كما لو أنه مصحح آلي في كمبيوتر..

هل مِثال الكمبيوتر يُعبِّر عن الحالة كما عبرتْ عنها السّجادة؟ ربما لو كنت روائية لفكرتُ بشطب مثال الكمبيوتر لأنه ليس بتألُّقِ الأول.

ولكن، ما الذي أفعله الآن، إنني أجمع الحكايات، واحدة بعد أخرى، حكايات صغيرة، بعضها أسمعه، وبعضها أعيشه، وبعضها أقصّه من صفحات الجرائد. وأظل أتساءل: ما الذي يفعله كتَّابنا اليوم. لماذا لا يكتبون عن ذلك كلّه؟

***

منذ ذلك الشجار التاريخي! قررتُ أن أكتب ما أراه، وقد أُلقي بـه ذات يوم بين يديّ كاتب، أو أفتِّش عن قبر غسان كنفاني وأقـول لـه قُـم واكتـب هذه الحكايات، الحكايات اليتيمـة التـي لا يكتبهـا أحـد. فالحكايـة التـي لا نكتبها، حكايتنا التي لا نكتبها، أتعرف ما الذي يكون مصيرها؟ اسمح لي يا غسان، أن أسألك، أسألك من قلبي، فأمامك يمكن أن أصرخ أو أجنّ وألا أحسّ بإحراج، لأنني أحدِّثك أنتَ، لأنك منا؟ هل تعرف ما مصير الحكايات التي لا نكتبها؟

إنها تصبح مُلْكا لأعدائنا.

***

هكذا دائما، كلّما كانت تُغلق الأبواب أمضي لبابه الـذي لم أجـده يومًـا مغلقًا.

ليلة أمس رأيته، غسان، في الحلم، فرِحْتُ، كان يسير في شارع أعرفه ولا أعرفه، شارع واسع ونظيف وحوله البحر من الجانبين، تبعته أوّلا، تبعتُه من بعيد. لم أجرؤ على الاقتراب منه، وفي الحلم خُيِّلَ إليّ أنني أحلـم، وخيِّـل إليَّ أنني سأصحو، كـلُّ الأشـياء تـشابكت، وسـمعتُ صـوتًا يقـول لي، لعلَّـه صوتي: أين شجاعتكِ، تتحدّثين عنه ليل نهـار، وحـين يُطـل تفـرّين هاربـة كفأرة مذعورة؟

- أنا فأرة مذعورة؟ غضبتُ. لو كنتُ فأرة مذعورة لما قلتُ ذلك الكلام الذي قلتُه لذلك الصحفي.

لكنني اكتشفتُ أنني سأضيِّع فرصة لقائه بهذا النقاش.

نظرتُ نحوه، كان قـد ابتعـد كثـيرًا، ولكننـي سـمعتُ صـوتَه ينـاديني باسمي. وحيَّرني هذا، لأن أمّي نفسها تُخَرْبِط بيننا.

رحتُ أركض نحوه، لكن الماء راح يعلـو كلَّـما لامستْ إحـدى قـدميّ الأرض.

وسمعته مرّة أخرى يناديني باسمي. ويطلب مني أن أسرع.

أسرعتُ، وحين فقدتُ الأمل في أن أصله في الوقت المناسب، رأيتُ يـده تمتد وتمتد، وكان يبتسم لي، وحين لمستُ أطراف أصابعه، اكتشفت بأن تلك اليد هي يد أختي.

فصحوت مذعورة..

لا تخلّيني أضحك!!

من شان الله.

ما الذي سيقوله الناس لو سمعوني؟

أعرف، كنا نسترقُ لقاءات زواجنا، كما لم نسترق لقـاءات حبنـا، ترسـل إلي إشارة صغيرة تقول لي فيها أخرجي من البيت فقط، وسيري في أيّ اتجـاه تريدين، سأختار اللحظة التي نلتقي فيها.

كنتُ أمشي وأحسّ أنكَ "غـزَّة" بأكملهـا، مـن شـمالها لجنوبهـا، ومـن شرقها لغربها.

أسألك ما الذي يحدث لنا؟ زوجة وتواعد زوجها؟!

فتقول لي: صدّقي أو لا تصدّقي، هـذه أفـضل متعـة في حيـاة التّخفـي؟ تعرفين، يشعر الإنسان بقيمة اللقاء أكثر.

أزعلُ

وأقول لك: ماذا تعني؟ هل كنتَ تخدعني أيام الحبّ؟

- لا، لم أكن أخدعك، ولكن في عتمة التّخفّي هـذه، هنـاك نقطـة ضـوء حين تنير أحسُّ بأن للعالم معنى آخر، غير هذا البؤس.

كنت تذهب بعيدًا بي، داخل أزقّة طويلة، أماكن لم أكن أعرف أنها موجودة، وحين أقول لك تُبالغ في احتياطاتك الأمنية؟

- تقول لي، ليس احتياطاتي الأمنية، بل احتياطاتي الزّوجية! تصوَّري ما الذي يمكن أن يُقال لو ضبطنا الناس متلبِّسين؟ سنصبح حديث غزّة، كل واحد سيقول للآخر هل سمعتَ: لقد شاهدنا اليوم رجل مع زوجته!!

ها عدتَ تضحك.

ولكنني لن أضحك هذه المرّة، لن أضحك أبدًا.

- تعرفين كان قلبي يبدأ بالتّقافز داخل صدري، لمجرد فكرة أنني سأراك، وحين أسير من بعيد متتبِّعًا خطواتك، أقول هذه امرأة، تستحقّ أن تُشْعِلَ حربًا من أجلها، إنْ حالَ أيّ شيء بينك وبينها. لكن المفارقة أنهم يُدركون ما أفكر فيه، ولذلك يُشعلون حربًا لكي يمنعوني من لقائها. كنتَ تبوح لي بذلك، وأحمد الله في سرِّي: كلّ هذه الحياة القاسية لم تقلل من حبه لي. وأسمعك تقاطع أفكاري، نعم تقاطع أفكاري التي لم أقلها: أتعرفين يا آمنة متى يستسلم الإنسان؟ يستسلم الإنسان حين ينسى مَن يُحب ولا يتذكر سوى نفسه، ورغم أنه يحسُّ أن هذه النفس هي أغلى ما في الوجود في تلك اللحظة بالنسبة إليه، إلا أنها في الحقيقة تكون قد تحولت إلى مدينة فارغة لا بشر فيها ولا أشجار ولا شوارع ولا ذكريات ولا حتى بيوت، ليس فيها سوى ظلال أسوارها ولا شيء غير ذلك.

لا تجعلْني أبكي،

من شان الله لا تجعلني أبكي.

لا تتحوَّل إلى شاعر في هذه اللحظة،

رندة تعتقد أن كلّ الناس شعراء، لا ليسوا شعراء تمامًا، ولكن هناك شاعر في كل إنسان، لا يخرج إلّا في اللحظة التي يلتقي فيها بنفسه تمامًا، عند

ذلك يتوهَّج ويقول شيئًا من المستحيل أن تسمعه منه في أيّ وقت آخر. تقول لي: هل سمعتِ ما قالته الصَّبيَّة الممرِّضة هالة جبر في فيلم "جِنين" الذي بثّته الفضائيات، حين اكتشفتْ أن الذي تجلسُ إلى جانب جثته في سيارة الإسعاف هو شقيقها جابر الذي استشهد في مخيم جنين؟ لقد قالت: "الدّموع ليست هي الحزن، الحزن هو أن تستطيع أن تمنع نفسك من أن تبكي أمام أحد من أجل هذا الأحد". ولم يكن هذا الأحد غير شقيقها الصغير الذي لا تريد أن تفاجئه بموت أخيه.

بعض الناس، تقول، يمكن أن تأتي هذه اللحظات في حياتهم كثيرًا، وبعضهم مرّات قليلة، وللأسف، بعضهم لا تتوهّج هذه اللحظة عنده إلا قبل لحظات من الموت.

وبصراحة، أنا أُصدِّقها، كيف لا أصدِّق رندة؟ هل تعرف ما الذي يدور في عقل هذه المجنونة التي لم تزل مُصرَّة على أنها لميس؟ أن تتسللَ من غزّة وتذهب إلى قبر غسان كنفاني، آ، غسان كنفاني حبيبك! ثم تحفر وتحفر حتى تُحدِثَ فتحةً في القبر وتعطيه كلَّ ما جمعتْهُ من حكايات، وتقول له: في هذه الأوراق من الحياة -رغم كلّ الموت الموجود فيها- ما يكفي لأن يجعلك تنفض الموتَ عنك، وتعود للكتابة من جديد!

"جمال"، هل ترى جمالَ هذه الليلة؟

ليلة مثل تلك الليالي التي تشتهيها، ليلة هادئة كما لو أن غزّة قد تحررت من زمن بعيد!

شوف..

رندة تظل تقول لي: واحد مثل غسان يا آمنة، يجب أن يسمحوا له أن يكتب رواية واحدة على الأقل بعد الموت. وتقول لي: هل تعتقدين أنه لا

يعرف ما يدور الآن؟ إنه يعرف أكثر منّا كلّنا. لكن الشيء الذي يعذبه أنه لا يستطيع أن يكتب زي زمان.

وتقول لي: كل الجميلين يثيرون شهيةَ الموت، وغسان من هؤلاء. أسألها، ولماذا؟ فتقول لي لأنهم جميلون، الموت يحسّ بوجودهم ما إن يولدوا، ولذلك يحاول الانقضاض عليهم منذ البداية، أحيانا ينجح وأحيانا لا ينجح، بعض هؤلاء الجميلين يتنبه، ويسمع خطوات الموت فور نزوله من بطن أمه، صحيح أنكِ لا تستطيعين رؤية رضيع يركض في الشوارع محاولًا الفرار من ذلك الفَناء الذي يلاحقه، لكنه يكون يفعل ذلك، وغسان من هؤلاء، بل كان أسرع من كثيرين.

ولكن هل تعرفين لماذا يركض يا آمنة؟ لا، ليس ليهرب، فالمسألة تكون أشبه بسباق مجنون، سباق لا رحمة فيه، فإذا استطاع الموت أن يدرك الراكض يأخذ روحه ويأخذ كل الأشياء الجميلة التي كان يمكن أن تصبح مُلك ذلك الشخص لو أنه سبق الموت. الجميلون يا آمنة يصبحون جميلين فقط، لأنهم استطاعوا الوصول إلى الأشياء التي يحبونها، الأشياء التي نحبها، الأشياء التي تحبها الحياة.

والموت يا آمنة، لا يرحمهم، هؤلاء، لكنهم لا يرحمونه، يحررون الأشياء الجميلة منه حين يصلونها أولا، يحررون الوردة والشجرة وجناح العصفور ونافذة البيت وصهيل الحصان والشمس والمطر، يحررون الفراشة والنّمر والغزال. قد لا تصدقينني يا آمنة، ولكن سأسألك سؤالًا واحدًا: هل تعتقدين أن هذا العالم كان من الممكن أن يكون لو لم ينتزع هؤلاء الجميلون جمالَ العالم من بين فكي الموت؟ هل تعتقدين أن الموت كان يمكن أن يُبقي لنا أي شيء هنا لولاهم؟! غسان كان يفعل ذلك، ولأنه يُدرك تمامًا أن الصّراع أكبر، أنظري ماذا فعل، خلال ست وثلاثين سنة، ترك لنا كل هذا

الجمال، لا بل أقل من هذه المدة، فحين أدرك أن خطى الموت تـزداد انـدفاعًا وراءه، كتب في أقل من ستة عشر عامًا كلّ ما كتب. أتعتقدين أنه كتـبَ مـا كتبَ لأنه يحبّ الكتابة فقط؟ لا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، ولو كان، لكان ثلاثة أرباع البشر كتّابا يا آمنة، غسان كَتَبَ ما كتب لأنه يحـبّ الحيـاة، يحبنا، ويحبني شخصيًا!

انظري الآن، أحيانا أخرج لحوش البيت، وأرى المـوت يُحَلِّـق في طـائرة الآباتشي أو طائرة أف 16 ، فأعود للداخل بـسرعة أحمـل مجلـدات غـسان، أرفعها إلى السماء وأصرخ: تستطيع أن تفعل كلَّ شيء ولكنك لـن تـستطيع قتل هذا، لقد سبقك وفُزنا بهذا كلّه، هل نسيتَ؟

....

أتعرف يا جمال، أحيانا أحس بأن هذه البنت تشبهني؛ لا، أحيانًـا أحـسّ بأنها أجمل مني، رغم أنها تحسّ أنني أجمل منها.

لا تضحكّ عليّ، ولكنني قلت لها ذات مرة: تيجي نبدِّل، أنت تكونين أنا وأنا أكون أنتِ؟

فقالت لي: يا ريت، وهيك ببطِّل أتقاتل مع أختي على الاسم! وقلت لها: يا ريت!

***

- يريد صورتكَ. قلتُ لكَ، صالح يريد صورتك.

- ولماذا صورتي فأنا أراه كلما كان ذلك متاحًا؟ قلتَ لي.

- إنه يريد صورتك، لأن ذلك المتاح لا يكفيه. يعتقـد أن شـكلك يتغـيّر كلَّ يوم، أحيانًا أُصدِّقه، نعـم، أحيانًـا أصـدِّقه، بخاصـة حـين لا أسـتطيع استدعاء وجهك تمامًا في لحظة أحسّ فيها بأنني بحاجة إليـكَ، بحاجـة لـك كلّك، بحاجة المرأة والحبيبة، أتعرف، أحيانا أحـسّ بأننـا لم نفـرح أبـدًا، لا،

أرجوك لا تفهمني غلط، أحيانا أحسُّ أن المـرّتين الوحيـدتين اللتـين اختـلى الواحد منا فيه بالآخر كانتا مرّة لننجب صالح، قبل السجن، ومرة لننجـب نادية بعد السجن. وها أنت ترى، كأنهم حوّلونا إلى مفـارخ دون أن نـدري. بعد أن اقتطعوا تسع سنوات من روحي بظلام سجنهم. بسجنهم لك.

تقولُ لي: إنني أبالغ؟ لأننا لسنا مجرد مفارخ؟!

أعرف أنني أُبالغ، ولكن هذه المبالغة لا تـدلّ إلّا عـلى شيء واحـد، أننـا حُرمنا من العيش معًا، تعني أننا كنا نحتاج لبعضنا البعض أكثر.

قلتَ لي: كلما سنحتِ الفرصة لالتقاط صورة سأفعل، ولكـن عليـكِ أن تريه إياها لحظة وتقومي بتمزيقها بعد ذلك. اتفقنا؟

وماذا أقول له؟

- قولي له إن أباك كان اليوم هكذا، ثم بعد أن يشبع من الصورة، مزِّقيها.

- وكيف أقنعه؟

قولي له، إن أباك سيكون في المرّة القادمة مختلفًا قليلًا، وإنـك لـن تحتـاج لهذه الصّورة، لأنني سأحضر لك صورة أجدد!

هل أقول لكَ إنه كان يرفض أن أمزّق الصورة، يـرفض ويبـدأ بالبكـاء. عندها أقول له: كما في كلّ مرّة، سأخبئها لـك إذن. أنـتَ تعـرف، سـأخبئها لأن الاحتلال يطارده، ولا نريد أن يعرفوا شكله تمامًا. لأنهم.. أنتَ تعرف.

فيقول لي: وهل تعتقدين أنني ولد؟!

- لا أنتَ لست ولدًا، أنتَ ابني. أنتَ أكبر!

وحين يُغمض عينيه، أتركـه وأذهـب إلى الغرفـة الثانيـة، أُشـعل النّـور، أُمسك الصّورة بين أصابع يديّ لكي أمزّقها، ومـا ان أحـاول حتـى ينفجـر بكائي، وأقول: يا الله لن أستطيع أن أمزّقها وأنا أنظر إليـه؛ أغمـضُ عينـيَّ،

فلا أستطيع، ثم أنهض وأطفئ النّور كي أملك شجاعة تمزيق صورتك، صورة حبيبي، لكن صوت البكاء في الظلام يصبح أعلى، هل تعرف ذلك؟ أرى العتمة تهتزّ حولي لفرط نشيجي، وحين تطلُّ الشّمس أجد صورتك بين يدي، وثوبي قد أصبح أسودَ لفرط ما تساقط عليه من رماد الليل.

عند ذلك أخبئ صورتك.. وتأتي صورة أخرى وأخبئها.

الحمد لله أنني فعلتُ ذلك. لأنني لم أكن سأعرف الكلمات التي سأقولها له. حين يأتي ذات يوم إلي صارخًا: كنتِ تصرِّين على تمزيق صوَرِه. كنت تصرّين، والآن، أنظري، ليس لدينا صورة واحدة له.

لكنني سأفاجئه، حين أذهب للمخبأ وأخرجها كلّها، وأناوله إياها، وأراه يقفز في الهواء كما لو أنك تمسكه بيديكَ وترفعه، تُلقي به للأعلى وتتلقَّفه من جديد، ثم ترفعه، وتتلقَّفه..

ترفعه..

وتتلقَّفه...

جمال: كأنني نمتُ!

لماذا تأتين متأخرة دائمًا؟

تأتين متأخرة دائمًا؟ قالتْ لي آمنة

وسألتني: لماذا تأتين متأخرة دائما؟!

- هل تعنين أنه غير موجود؟

- نعم يا رندة، غير موجود.

***

حدَّثتني كثيرًا عن عزيز. قالت لي: بما أنكِ مثل ابنتي، فأنني سمحتُ لنفسي أن أفكِّر فيكِ طويلًا، وقد وجدتُ الحلَّ. يلزمكِ عريس مثل عزيز! وأصارحكِ، لقد فاتحتُه بالموضوع أيضًا: يلزمكَ يا عزيز بنت رقيقة مثلكَ اسمها رندة!

- شويّ شويّ يا خالتي. بعد قليل سأكتشف أنني تزوّجتُ دون أن أعرف!

وكما لو أنها تهمس لي سرًّا لا يجب أن يعرفه أحد، اقتربتْ مني، وحين تأكَّدتْ من أن لا أحد هنا غيرنا همستْ: اطمئني، خالتك آمنة كبرتْ قليلًا.

- ماذا تعنين؟

بعد وقت طويل أضافت: الصحيح كبرتُ كثيرًا، ولكنني رغم ذلك لم أصبح رجعيّة! فحتى هذا اليوم لم أزل أتسلل خِفيةً من أجل موعد غرامي مع جمال. لكن بالله عليك، لا تقولي هذا الكلام لأحد. أنتِ تعرفين، ما زالوا يطاردونه، ولا أريد أن أكونَ السّبب في حدوث أيّ مكروه له.

كان حديثها المستمرّ عن عزيز قد أثارَ فضولي فعلًا، وقد كتبتُ في دفتري بعض تصوّراتي عنه. هنالك شيء كان يثير فضولي فعلًا، ليس كفتاة، بل كحالمةٍ بالكتابة، أو جامعةٍ حكايات فلسطينية.

قالت لي آمنة: أحيانا يأتي إلى المقبرة وقبل أن يفعل أيَّ شيء يُحصي القبورَ الفارغة بنظرة سريعة من عينيه. أدركُ ذلك دون أن يقول لي. ذات مرّة لم يجد أيَّ قبر منها، فبدأ يبكي، يبكي كطفل صغير. وأنا أُهدهده. ويظل يبكي حتى بعد أن يُغلق عينيه براحتيه. فأحسُّ بأن الدّمع قادمٌ من مكان بعيد، مكان بعيد جدًا، ربما من أول جنازة لشهيد سقطَ على هذه الأرض، ربما من جنازة عيسى عليه السّلام. أنظرُ إلى الدّمع فأراه مُتْعَبًا، مثلنا، ولستُ أدري، حين كنت أضع رأسَهُ على كتفي هل كنتُ أضعُ رأسه أم أضع تلك الدّموع التي قد تكون، مثلنا، تبحثُ عن كتف.

- يا إلهي تعبتُ. كان يقول لي. فأحسُّ بأن عمره ألفَ عام.

ذات مرة قال: أتعرفين يا خالتي آمنة، بعد رحيل هذا الاحتلال عن أرضنا لن تمتد يدي إلى الفأس حتى لزراعة الزّهور!

فأقول له: إلّا هذا، هم يريدوننا أن نكون غير جميلين، لا تفرِّحْهُم بذلك.

وتصمتُ، ثم تقول لي: أظنه لن يحتمل الأمر من هنا حتى ننتصر!

جملتُها تلك، جعلتني أوافق على القدوم للتعرّف إليه. قلتُ: إن فيه شيئًا من ذلك النّور الذي ينبعثُ من البشر.

فتّشنا عنه كثيرًا ذلك النهار، عبرْنا أمـام الحـواجز، لم نجـده، في شـوارع رئيسة لم نجده، في أزقّة قادنا القلبُ إليها، لم نجده، ثم قالتْ لي آمنة: لمـاذا لا نبحثُ عنه في بيته؟!

- وهل تعرفينه؟

- لا.

قلتُ لها: وكيف سنبحث؟

قالت: نذهب إلى المقبرة ونتتبـع النّـور الـذي تحـدثتِ عنـه إلى أن نـصل لبيتهم!

- من حدَّثكِ عن خيط النور؟!

- لا أحد. والله لا أحد. كانت تنفـي كطفلـة صـغيرة ضُـبِطتْ متلبـسةً بارتكاب ذَنب.

حاولتُ تهدئتَها بسؤال سريع قد يُلهيها بالبحث عن إجابة له: وما الذي ستقوله أمه حين تجد امرأتين -زيّ القمـر !!- تـسألان، هكـذا مـن البـاب للطاقة؟!

- أقولُ لكِ، وما تستغربيش. ستفرح؟

- ستفرح؟

- نعم صدِّقيني ستفرح، الأمهاتُ غريبات في هذه المـسألة، يُبـدين أنهـنّ غاضبات أمامَ الناس، أو غير مرتاحات! ولكن فيما بعد، تبدأ الواحدة منهنَّ تضحك في عبِّها. اسأليني. فأنا أعرف هذا الكلام!

تذكرين، حين أصبحتْ لميس تخترع الكلام لتقول لي بخجـل، كـأنني لا أعرف، أشياء جميلة عن صالح. وأقولُ لنفسي الحمد لله، ها قـد كـبرَ الولـدُ

بحيث أصبحَ بإمكانها أن تراه، يعني أن يملأَ عينها! لا أخفيكِ، كنتُ أفرح. فمِنْ أين لأمٍّ مثلي بفتاة لابنها مثل ليس. ومن أين له أيضًا؟

ثم التفتتْ إليّ وقالت: ها أنا مشغولة بكِ، مشغولة بعزيز، ولا أرى أحدًا مشغولًا بي؟!

- أنتِ أقربُ شخص في هذه الدّنيا إليّ. ما الذي تعنين بهذا الكلام؟

- وبعدين يا رندة! المسألة طالتْ أكثر مما يجب، وعلينا أن نزوِّجَهما، وأنتِ وعدتِ، لقد وعدتِ أنكِ ستكلِّمين أمّكِ، لننتهي من هذا الأمر.

- لم أنسَ. قلتُ لها، ولكنني لم أجد الوقتَ الملائم لذلك!

- بصراحة، كان يمكن أن أتحدَّث مع ليس مباشرة، وأطلبُ يدها من نفسِها، فهي كبيرة وباستطاعتها أن تقررَ المناسبَ من غير المناسب لها، لكنَّ الأصول أصول. من أيام لمَّحْتُ لها، وأظنّ أنها فهمتني، بل أظنّ أنها أحبتْ تلميحي، لأنها ظلتْ صامتة، وأنتِ تعرفين، السُّكوت من علامات الرِّضا. أليس كذلك؟ ثم إن الأمور إذا ما سارت كما أفكر، فلربما صار العرس عرسين، عرس ليس وعرسكِ.

وفجأة وجدتُ نفسي أسألها بغضب: وهل تريدين أن تزوِّجيني لعزيز لهذا السبب؟ لأنكِ تظنين أنني الكبيرة؟

نظرتْ إليَّ آمنة بعينين دامعتين: ولو! لقد كبرتُ نعم، ولكن ألم أؤكد لك بأنني لستُ رجعيَّة!

وقلت لنفسي: لقد جننتِ، ما الذي يحدث لكِ لتدخلي هذه اللعبة، وتتوغّلي فيها إلى هذا الحد؟!

***

- ما دمنا وصلنا للسّوق، سأشتري بعض الخضار، منذ مدة لم أطبخ لهم طبخة تسندُ أمعاءهم كما يجب. الملوخية بتشهّي اليوم شايفة؟!

هززتُ رأسي، سأشتري الدّجاج من شارعنا، بدل أن نحمله إلى هناك. ثم التفتتْ إليّ: ما رأيكِ أن تتغديْ معنا اليوم؟ ولعله يفاجئنا فيأتي.

- من؟

- عزيز، ولوْ صرتِ ناسية؟!!

***

بعد أيام زرتُها. كانت حزينة، قالت لي: لماذا تأتين دائمًا متأخِّرة؟

- ولكنني اليوم لم آتِ لموعد محدّد بيننا. جئتُ هكذا بالصّدفة.

- رغم ذلك تأخرتِ!

- هل جاء عزيز وذهب، أم ماذا؟

- قالت لي، أتى، ولم يذهب، ولكنكِ تأخَّرتِ. وراحتْ تبكي.

تركتُها ورحتُ أسير بين الشّواهد، عندها أحسست بذلك الهاجس، الذي خطرَ لي ذات يوم حولَ الشهداء، يسير في عروقي: هل ثمة يوم مرَّ من هنا دون أن يستشهد فيه أحد؟

رحتُ أتصفَّح التواريخ المنقوشة على الشّواهد، ثمة أيام قليلة مرَّت دون أن نخسر أحدًا، أيام قليلة، بدتْ لي للحظة كأنها أيام عطلة الموت لا أكثر؛ الأيام الإجازة، الأيام التي يكون مضطرًا فيها للذهاب في مهمات عاجلة. وقد صدمني ذلك الجشع، جشعه، إنه يلتهم الأخضر واليابس دون أن يعني له ذلك، على ما يبدو، أيّ شيء..

سنوات طويلة سرتُها بين تلك الشواهد، سنوات تتراكض فيها الأيام متقافزة من قبر إلى قبر، إلى أن وجدتُ نفسي أمام تاريخ أعادني للزّمن الذي

أنا فيه: أمس. وفوق ذلك التاريخ، كان يُطل من مُلْصق كبير، ومن بين أزهار لم تجف، بعدُ، وجهُ شاب، خُيِّل إلي أنني أعرفه، وحين قرأت الاسم رحتُ أبكي.

- لعلك أخذتَ الأمر بجديَّة أكثر مني، قلتُ له! لعلكَ أحببتني إلى حدّ أنكَ لم ترغب أبدًا في أن تراني، ولذلك اختصرت الطريق من أوَّله، ورحلتَ. ولكن إياك أن تكون فعلت ذلك هربًا مني، لا خوفًا عليّ.

ماذا تقول؟!!

نهضتُ بسرعة، رحتُ أركض بين القبور. ما الذي يحدث لي؟ هل جُننتُ؟ لأحادث مَنْ في القبور!

وقالت لي: لماذا تركضينَ هكذا؟ هل جننتِ؟

بعد يومين رأيتُها. قالتْ لي: إنها غاضبة جدًا عليّ.

قبَّلْتُ رأسَها ورجوتُها أن تسامحني.

فسامحتني.

***

جلسنا طويلًا في صمت لم ندر من أين هبط، وكيف انتشر حولنا دون أن نلاحظه يهبط، دون أن نلاحظه ينتشر، ثم سمعتُها تقول لي، وكان صوتها قادمًا من مكان بعيد، بعيد جدًا، بعيد، قرب ذلك اليوم الذي رأيتها فيها أوّل مرّة، على بابنا تسألني:

- شايفة يا رندة، أذهب للسّوق ثم أطبخ وأنفخ، وبعد كلِّ هذا التّعب، لا أحد يأكل. شوفي، الطبخة على حالها. والله ما أنا عارفة ليش بَتْعِب حالي.

ثم التفتت إلي وقالت: أحطّلك صحن توكلي؟

سمعتُها تنادي

كما لم تنادِ من قبل..

كانت هائجة: يا بنت. يا بنت.

ذهبتُ إليها مسرعةً، متجاوزةً المصطبة الإسمنتية، والدّرجات الصاعدة نحو سطح المنزل، لم تكن السّاعة قد تجاوزت السادسة والنصف صباحًا.

- آ، شو في يا ستّي؟

- شو في؟ وتسألين أيضًا. من أين اشتريتِ القهوة أمس، ألم أقلْ لكِ لا تشتري من قهوةِ هذا الزِّفت! هل يحمِّصها على الشمس هذا اللعين؟! هل يحمِّصها على الشمس!! لقد قَطَّع نومي، كما لو أن نومي فخذُ خروف تحتَ ساطور أبو العبد!

- لكنني لم أشتر القهوة منه، اشتريتها لكِ من أحسن محل في شارع عمر المختار.

- شو اسمه؟

- والله ما أنا عارفة، لكنني شممتُ رائحةَ القهوة في الطريق فتـذكَّرتُكِ، فقلتُ: أشتري لكِ منها. وقد اشتريتُ. قال لي إنها قهـوة برازيليـة مائـة في المائة.

- قهوة برازيلية؟! ومن قال لكِ أن تشتري لي قهوة برازيلية؟

- لقد أخبرتْني أمي أنكِ تحبينها.

- أحبّها؟!! أحببتها في الماضي قبل خمسين أو ستين سـنة، ولكننـي حـين فقدتُ الأمل أصبحتُ أكرهُها!

- لا أحد يكره القهوة البرازيلية يا ستي.

- أنا أكرهها. قالتْ ذلك بنبرة قوية لدرجـةِ أننـي رحـتُ أراقـب يـدَها لأوّل مرّة، خائفةً من أن تقفزَ نحو عكازها وتنهال به عليَّ.

- قهوة مثل هذه، لا أريد أن تدخلَ الدار، فهمتِ؟!

- فهمتُ يا ستي! ولكن لماذا لا تقولين لي السبب؟

- لأنها خربطتْ عياراتي!

- لم أفهم يا ستي. من شان الله خذيني على قَدْ عقلي.

- سيدك، سيدك، رأيته الليلة خمس مرّات في الحلم!

- يعني حلمتِ الليلة به. قولي من أوّل!

- عمرك ما راح تفهمي. لأنني حلمتُ به أقول لكِ إن قهوتكِ خربطـت عياراتي. لقد كففتُ عن الحلم به منذ زمن طويل. تستطيعين أن تقـولي إننـي قاطعته. لقد كنتُ أحبُّ القهوة البرازيلية حين كان يُراسلني مـن البرازيـل، ويقول: إنه سيعود. في تلك الأيام، حين عرفتُ أن هنـاك قهـوة برازيليـة، لم أعد أشرب إلّا منها، مع أنني متأكدة من أنهم كانوا يـضحكون علـيَّ أحيانًـا ويشترون لي قهوة "اليمن"! لكنني كنتُ أعرفْ؛ أعرف، لأن رائحةَ جـدِّك

لم تكن فيها. فهمتِ؟! أما بعدَ أن فقدتُ الأمل بعودته، أما بعد أن ماتَ دون أن يأتي كما وعد، فإن سيرة القهوة البرازيلية أصبحتْ تُقَشْعِر بدني.

لم أعد أشربُها فهمتِ، لم أعد أشربُها أبدًا.

حاولتُ أن أنطقَ كلمة واحدة، كلمتين، أن أعتذر، لكن يدها كانت تبدأ بالتطلّع إلى العكاز.

- أسكتي يعني أسكتي. يكفي ما تسببتِ به الليلة. لقد رأيتُه في الحلم، أتسمعين؟! رأيتُه في الحلم، ولذلك صحوتُ بسرعة، حتى أُنهي اللقاءَ من أوّله. وحاولَ مرة ثانيةً وثالثةً بعد ذلك، ولكنني كنتُ متيقِّظةً له.

ثم تصمتُ: هل قلتُ لكِ يا بنت لماذا يحلم الناس؟

- لا.

- لأنهم لا يشبعون من الحياة، يحلمون حتى يتخيّلوا أنهم ليسوا نائمين، بل مستيقظين، وأن شيئًا لم يَضِع عليهم؛ وأنا أيضًا، أما أن أحلم به فأبدًا! حتى لو نقص عمري. لكن ما باليد حيلة أحيانًا! يبدو أنني تعبتُ أخيرًا، فنمتُ، وأصبحت السّاحةُ خاليةً له، فدخل إلى حلمي دون أي مقاومة تُذكر، كما تقول الإذاعات. ويا ريته اكتفى بهذا، لقد تجرأ وقال لي: عليكِ أن تتزوجي يا وصفيّة. فقلتُ له: أنا أتزوّج! قال: نعم عليكِ أن تتزوّجي. وأنا لم أزرك هنا، إلاّ بعد أن وجدتُ لكِ عريسًا لُقْطَة. صرختُ في وجهه، وكمان جايب العريس معاك. وينه!! بعدين، هل جننتَ يا رجل، هل تعتقد أنني ما زلتُ صبيَّةً بحيث يمكنني أن أتزوج؟ حتى أنني انفعلتُ إلى حدٍّ أنني قلتُ له، ولا حياءَ في الدين: يا شايب، ألا تعرف بأن كلَّ خزوقي سكَّرتْ. كان يكفي أن تنظرَ في عيني لتدرك ذلك. فقال لي: لا تخدعيني. حين متُّ كنتِ صبيّة، ولا أحلى!! فصرختُ به: وهل رأيتني قبل أن تموت؟ أظنكَ لم تتذكر

وجهي حين كانت روحكَ تتهيأ للصعود إلى ربها. فقال لي: لا يمكن أن تكوني كبرتِ، فأنا لم أمتْ إلا من أيام؟!!

من أيام؟! قلتُ له. من أيام!! ياللي ما بتخاف ربّك، صارلك أكثر من خمسين ستين سنة ميت. فقال لي: يا امرأة لا تفاولي عليّ!! لو أنني ميتٌ منذ ذلك الزّمان، لما استطعتُ أن آتي إليك من البرازيل حتى غزة خمس مرات وأعود في ليلة واحدة!

إذن كنتَ تعرف أنني لا أريدكَ أن تدخل إلى حلمي، تعرف أنني أغلقتُ الحلم في وجهك مرةً، مرتين، ثلاثًا، أربعًا، خمسًا، إلى أن أتعبتني واستغللتَ تعبي ودخلتَ منه. وقلت له: ما دمتَ نشيطًا إلى هذا الحدّ، أنتَ الذي تستطيع الذهاب للبرازيل والعودة في ليلة واحدة خمس مرات، فلماذا لا تتزوجني أنتَ؟!

- أتزوجكِ أنا؟

- آ، أنتَ، وهل ينقصني طول أم عرض، أم عينان أم ماذا؟

- كيف يمكن أن أتزوجكِ وأنت زوجتي؟ هل جننتِ؟

- آ والله صحيح، كيف ستتزوّجني وأنتَ زوجي؟!

- ها قد عاد إليكِ عقلكِ. قال لي.

- أتريدني أن أتزوّج يعني؟ بجدّ!

فقال: نعم.

لكنني يا ستّي عرفتُ قصده. آ، عرفتُ قصده، فهو لم يأت إليَّ الليلة خمس مرات، إلا لشيء واحد. هل تعرفين ما هو؟

وقبل أن أجيب، قالت لي: يا ستي سيدك حَنّ.

- حَنّ؟!

- آه حنّ، وأكيد لأنه ما عمل في حياته شيء واحد يجعلني أترحَّم عليه، الله عاقبه وحرمه من الحوريات!

- لم أفهم يا ستي.

- لم تفهمي.

- جدّك هذا كان يعمل ألف حيلة وحيلة، بعد زواجنا، حتى (ولا حياء في الدّين)..

ثم صمتتْ وسألتني: قديش عمرك إنتِ؟

- يمكن خمسة وعشرين.

- خمس وعشرين يعني بتفهمي ما الذي يحدث بين الزوج وزوجته؟!

هززتُ رأسي.

- جدّك كان يعمل ألف حيلة وماذا؟

- وحيلة.

- إذا كان بدوا إيّاني. فهمتِ؟

- فهمت.

- فكيف لا يجيء خمسَ مرات في ليلة واحدة من البرازيل؟!! كيف؟

وتصمتُ كثيرًا، ثم حين تراني أهم بالنّهوض، تقولُ لي: أقعدي، لم أُنْهِ كلامي.

- كيف أخوتكِ؟

- أخبارهم مليحة، بس الوضع صعب. تعرفين حين يطاردون شخصًا، فإننا لا نستطيع إلّا أن نخاف عليه. عيونهم على الأرض وعيونهم في السماء، طائرات، بعضها نراه، وبعضها لا نراه.

- الله معاهم.

وتصمت. أتحرّك، فتعود للكلام.

- أتعرفين ما الذي يريده سيدك فعلًا؟

- ماذا يريد؟

- يريد أن يأخذني عنده. كأنّه اشتاق إليّ. ولا أظن أن للأمر علاقة بحرمانه من الحوريات!

- بدأت تحنّين يا ستي؟

- لكنني لن أموتَ من أجل ملاقاته!

- الشَّر بعيد.

- الشّر دائمًا قريب. ألا تعرفين ذلك. ولكن هناك شيئًا آخر لا أريد أن أموتَ وهو في نفسي.

- ما هو؟

- هل تعتقدين أنني عشتُ كلَّ ما عشته، وتحمَّلتُ كل ما تحمَّلته حتى أموت قبل أن أرى بخزوق عينيٍّ هذه رحيل هؤلاء؟! هل تعتقدين أنني سأموت قبل أن أطمئن عليكِ، وعلى أمّكِ وعلى أخوتك؟! ألا يكفيهم أنهم حرموني من أن أطمئن على أختك، وجمال وصالح وآمنة، ومصطفى، وعزيز؟!

- عزيز؟! مَن عزيز؟ سألتها.

- يا ستي هذا البِزْ رضَّع قدِّك وقدود، يعني رضّع مِثلِكْ مَثَايِل، يعني ياما رضَّع. وهناك أشياء ما بتتخبّا.

قلتُ لها: ولكنني لم أره!

- أتعتقدين أنني لا أعرف؟ ولكنني أحسّ بأنه كان يمكن أن يكون الوضع أفضل لو أتيح لكما ذلك.

- حزنتيني يا ستّي.

- يا ريت كان بإيدي أَفَرْحِكْ!

- وجودُكِ وحده يفرحني.

- آها اعترفي، مش كلّ شويّ أطلَّعْ عليك أحسّ إنك بدِّك تُهربي مني.

- طيّب، مسموح لي أروح؟

- مسموح.

- أكيد؟!

- ولِكْ أكيد. وإذا ما راح تقومي راح أضربك بهالعكاز.

- إلاّ هذا..

وبعدَ، لا أدري، أجد نفسي هناك، مع آمنة.

كنتُ متأكدةً من أنكَ أنتَ..

كنتُ متأكِّدة من أنكَ أنتَ الذي رحلتَ،

وكان لا بدَّ من موت كبير، موتٍ غير عادي كي يمنعـكَ مـن الوصـول إليَّ.

كنتُ أشاهدُ التلفزيون، وإلى جانبي رندة وصالح. كنا نشاهد التلفزيونَ ولا نشاهده، هكذا كان ملقىً أمام أبصارنا دون أن نُعيره اهتمامًا.

مرّاتٍ كثيرة فكَّرتُ، ولماذا يبقى مفتوحًا ما دمنا لا نشاهده؟

ولكننا كنا ننظرُ إليه، بين لحظـةٍ وأخـرى دائـمًا، لـسبب لا نعرفـه. رنـدة كانت تسألني: وما الذي ننتظر أن نراه على هذه الـشاشة، ونحـن شـاهدناه ونشاهده بأعيننا هذه؟

ربما كانت العادة، العادة لا غير. إذ لا بدَّ أن نتواضع أحيانًا، ونـرى، لأن هناك أشياء لا نراها بأعيننا. لكن رندة قالت لي: ليس مهمًا أن نرى ما لا نراه بأعيننا، لأننا نرى ما يشبهه هنا.

ذكيّة هذه البنت، أتعرف، لـو كـان صـالح يحبّهـا قلـيلًا، لفكَّـرتُ بهـا، وساعدته على أن ينسى حبَّ ليس، لكن القلب وما هوى!

لا تؤاخذني، كم مرّة قلتُ لكَ هذا الكلام!

الصحيح أنها لم تتركني. دائما أحسّ بأن يدها في يدي، وعلى جبيني، حتى عندما أنام، أسمعها تحدِّثني. سأقول لكَ شيئًا غريبًا؛ أعرف أنكَ لن تُصدِّقه، ولكن هذه البنت، حين تجلس قربَ رأسي في الليل، وتضعُ كفّها على جبيني، أنام مرتاحة، أنام كجنين في رحم أمِّه.

قلتُ لها: كان يجب أن يكون اسمكِ رحمة، وليس رندة. فقالتْ لي: أولًا أنا اسمي لميس، ثم هل هناك مكان يمكن أن تعيش فيه الرّحمة هنا؟ كنتُ سأموت قبل أن أولد. كنتُ سأموت بمجرد أن يخطر هذا الاسم ببال أمّي. أنظري إليهم، إنهم يقتلون كل شيء، أتعرفين لماذا؟ لأنهم قتلوا الرحمة أولًا.

وكنتُ أراقب أصابعَها، وأقول: لو لم تكن أصابعها دقيقة على هذا النّحو، لما استطاعت أن تُنقّي أحلامي.

نعم، تُنقِّي أحلامي، حين أكون نائمة.

لماذا تستغربُ ذلك، ألم أقل لكَ، حين تكون قربَ رأسي، لا أرى أيَّ أحلام مزعجة أو كوابيس. تجلس قربي، وكما لو أنها تنصب شبكة تمنع مرور ما يُفزعني؛ ما لا يجعلني أنام.

وقد سألتُها ذاتَ مرّة، كيف تستطيعين أن تفعلي ذلك يا رندة؟

سألتني: وما هو ذلك الذي أستطيعُ أن أفعلَه؟

- أنا عارفة وأنت عارفة!!! قلتُ لها.

فقالتْ لي: والله ما أنا عارفة إشي!

وخشيت أن أصارحها، فتقول إنني جننتُ. فلم أصارحها. وقلتُ لها، لقد أصبحتُ أفضلَ، بإمكانك أن تذهبي وتنامي في فراشِك، ألم تشتاقي

إليه؟ فقالت لي: ومن يشتاقُ لفِراشه هنا، وهو لا يعـرف إن كـان سيـصحو حيًا أم ميتًا فيه.

أرأيتَ، يخرج الكلامُ من جوَّاها.

ذات يوم قالت لي: حين يُغلقون الطُّرقَ ويُغلقونَ السماءَ أتجوّل في داخلي، أكون مضطرةً للتجوّل في داخلي يا خالتي. وهناك أُفاجأ بأشياء لم أكن أعتقدُ أنها موجودة. أتعرفين ما هي: الكلمات. نعـم، أكتـشف أن هنـاك كلـمات، كلمات كثيرة، تُمسكني من يدي وتسيرُ بي، كلـمات مـضيئة، حـين تتجّمـع، حين تتلاصق، تُشرق شمسٌ كبيرة، وأرى أكثر، أحـسُّ أكثـر، أراكِ حتـى، أرى لميس، صالح، جمال، أخـوي، أرى جـدّتي، أراكـم كلّكـم. وأفهمكـم أكثر.

لكنها لم تقل لي ما رأت على شاشة التلفزيون ذلك اليوم، ونحن ننظـر إلى الشاشة دون أن نُشاهدَها. لم تقل، وسيمرُّ وقتٌ طويل، قبل أن تقول لي: إنها كانت تعرف، لأنها كانت تريدني أن أعرف بنفسي. قالـتْ لي: هنـاك أشـياء يجب أن يعرفها الإنسانُ بنفسه، وإذا قالها له شخص آخـر، فإنهـا تغـدو بـلا معنى.

لكنني أحسستُ، أحسستُ يومها بما حدث، ولم أكـن أريـد أن أعـرفَ. لا، لم أكن أريد أن أتأكّد.

دون أن نقولَ أيّ كلمةٍ، نهضنا، الاثنتان، قلنا لصالح، ابقَ هنا في البيـت، مع أختك، ونحن سنذهب مشوارًا صغيرًا ونعود.

أتعرف لم أُرِدْ أن أنفَعِلَ، أو أن أبكي، لأنني كنت أُدرِكُ أنني لـو فعلـتُ ذلك فإنني سأكون قد أعلنتُ موتَك. كنتُ أريدك أن تجـيء، كنـتُ أريـدكَ أن تُرسل إلي إشاراتك القصيرة، التي أتبعُها، فأجد، بعدها، نفسي معك.

لكن صالح رفض، فنادينا لميس، قلتُ لها يا لميس، هل يمكن أن تجلسي مع نادية، سنذهب مشوارًا صغيرًا ونعود.

ولم تكن رندة تتكلّم، أنطبقَ فمُها، كما لو أنها ولِدَت بلا فم. وحين دخلتْ لميس، قلتُ سيُغيّر صالح رأيه، لكنه لم يُغيّر رأيه ليبقى في البيت. تصوَّر؟!

عندها ازدادَ خوفي؛ قلتُ: الولدُ يعرف، ورندة تعرف، وأنا وحدي التي لا تريد أن تعرف.

لم يكن من السّهل معرفة الوجه على الشاشة. كانت الدماء تغطيه. وفي الطريق سألتُ نفسي، هل رأيتِ وجهًا أم خُيِّلَ لكِ أنكِ رأيتِ وجهًا؟ لا أعرف. كل الأشلاء اختلطتْ ببعضها البعض، ولعلّها شكَّلَتْ وجهًا بالصّدفة، وجهًا ليس بالضرورة أن يكون وجهكَ، لأنني كنتُ أراكَ كلَّ مرة على هيئة أخرى كلما التقيتكَ، كنتُ أفزع في البداية، وأقول لنفسي، ما الذي يفعله هذا الاحتلال بكِ يا آمنة، إنه يقذفُ بجسدك في كلِّ مرّة إلى ذراعي شخص ترينه للمرّة الأولى! لا تأخذ كلامي أكبر من حجمه، لأنكَ تعرف أنني أحبكَ، ولكن الأمر كان يُخيفني.

أتذكُر عندما نهرتُكَ ذات يوم، حين قلتُ لك: يا عيبك، عجوز بعمرك يلاحق بنتًا بعمر ابنته. وعندها رحت تضحك، وتضحك، ولو لم تضحك لما عرفتكَ أبدًا!

ثم تلك المرّة، حين تبعتَني وشككتُ فيك؟ قلتُ، هذا جاسوس يتبعني، إنه يراقبني منذ غادرتُ البيت. لم أكن أتوقّع أن تقترب إلى هذا الحد. وأنا كنتُ حريصةً دائمًا. أتذكُر حين عدتُ للحارة بعد أن فقدتُ الأمل في تضليلك، وأنت تجري ورائي غير قادر على أن تُدركني؟ وكيف صرختُ:

جاسوس، جاسوس. فاندفع الأولاد وراءك بالحجارة. ولكنّ، الله رحمك، حين استطعتَ الهربَ قبل أن يلحقوا بكَ تمامًا.

- كنتِ ستقتلينني يا آمنة. بعضُ الحذر مُهم، لكن هذا الخوف قاتل. قلت لي.

ولم أعد أصرخ صرخةً كتلك، مع أنني كنتُ أعرف أن الجواسيس زيّ الهَمّ على القلب، كثيرون. أصبحتُ مستعدةً أن أدورَ طَوال اليوم، حتى أُنهك أيّ جاسوس فعليٍّ، وأصبحت أَملُكُ الصّبر بحيث أقبل بالعودة للبيت، حتى دون أن أراكَ أحيانًا.

التلفزيون قالَ إن الطائرة التي ألقت الصاروخ، قتلتْ واحدًا، وأصابتْ آخرَ، إصابتُه خطيرة للغاية. ثم عرضَ صورةً للشّهيد وطلب ممن يعرفه أن يتوجَّه لمستشفى الشفاء فورًا.

صمتُ رندة هو الذي كان يُخيفني أكثر، إلا أنها فتحتْ فمَها أخيرًا حين أدركتْ أن صالح سيأتي معنا.

- إن شا الله خير!

قالتْ ذلك، كما لو أنها جدَّتها، وليست رندة. لأنها قالتها كمن يعرف السِّرَّ ولا يريد البوحَ به.

وقلتُ لها: لا ليس هو. لو كان هو لعرفته على الفور. يكفي أن أرى أيّ جزء منه لأعرفه، لا، ليس هو. وكنتُ أعرف أنكَ لستَ أنتَ، لأنك لا يمكن أن تكون هذا الفُتات المبُعْثر. أين طولك؟ أين عيناك؟ يداك؟ ابتسامتك؟ أين خطوتك؟!

لا لستَ أنتَ.

لكن كلَّ شيء تغيَّر، حين وصلنا المستشفى، كانت الدّنيا قائمة قاعْدِة. مئات الناس جاءوا للمستشفى. جاءوا ليتعرّفوا عليك.

عندما استطعنا أن نشقَّ طريقنا عبر الناس الذين كانوا يبكون، ووصلْنا لذلك الشخص الذي يرتدي الأبيض المُلطخ بالدم على باب المشرحة: قلتُ له. أريد أن أراه. فسألني: بتقربي له؟

فقلت له: إنه زوجي.

- عشرون امرأة تعرَّفن عليه وقلْن إنه زوجهنّ!

- عشرون امرأة؟ لا. جمال ليس له سوى زوجة واحدة هي أنا.

- كلّ واحدة منهن قالت هذا الكلام. ولذلك سأدعك ترينه.

وحين همَّ صالح بالدّخول، منعه، وقال: أنتِ فقط. فبقي مع رندة.

رفع الغطاء عنكَ، لم أر شيئًا، وكان الدُّخان يُغطي تلك الأشلاء التي لم يحوِّلها الانفجار إلى فحم..

حاولتُ البحث بعينيَّ عن شيء يشير إليكَ، لم أجد. رجوتُه أن يكشفَ الغطاءَ أكثر، فقال لي: ما الذي تريدين أن تريه؟ لا شيء يُرى يا أختي! لا شيء!! ولكنه رفع الغطاء أكثر، ولم أر شيئًا، فبدأتُ أبكي، ثم رحتُ أصرخ. جمال، جمال.

سألني: هل تعرَّفتِ عليه.

وكان صراخي يزداد.

جاءتْ ممرضة، أحاطتْني بذراعها وسارت بي نحو البوابة الخارجية. وما إن لمحتُ وجه صالح حتى جفتْ دموعي، وجفَّ صراخي، كما لو أنني لم أصرخ ولم أبكِ. لقد رأيتكَ. رأيتكَ في وجهه. فقلتُ: لا. ليس هو. حين سألتني رندة. وقلت: لستَ أنتَ حين سألني صالح. وقلت: لستَ أنتَ حين سألتُ نفسي.

وحين قالتْ لي رندة: نعودُ للبيت إذن. قلت لها: لا. وتشبثتُ بعتمة الليل.

رندة فهمتني، قالتْ: سأذهب وأعود، أمسكتْ صالح من يده، وسارت به، ابتعد معها كما لو أنني لستُ أمَّه، ابتعد بهدوء وهذا أخافني أكثر.

على عتباتِ المستشفى جلستُ، وبعد زمن اكتشفتُ أنني أسند ظهري إلى ظهر امرأة. سألتُها: من أنتِ يا أختي؟ فقالت: زوجته! وقلتُ لها: وأنا زوجته! فسمعتْنا امرأة أخرى وقالت: لا، أنا أعرفه، فأنا زوجته! وقالت امرأة: إنها أمّه، ولا شيء يدركُ أمرًا كهذا مثل قلب الأم! فسكتْنا طويلًا، قبل أن تقول واحدة أخرى: إنني متأكدة من أنه هو، إنه زوجي! وقالت صبيَّة: ليس لي غيره، إنه أخي الوحيد، فلماذا تريدون أن تأخذوه مني؟! فسكتْنا طويلًا. إلى أن سمعتُ طفلًا صغيرًا يصرخ: يابا، يابا، بدي أبوي!

فجأة نهضتُ.

- إلى أين؟ سألتني امرأة كانت قد أخبرتني أنكَ زوجها، وأنها متأكِّدة من ذلك، لأنها أنجبت منك سبعة أولاد: ثلاث بنات وأربعة أولاد. وقلتُ في نفسي حين سمعتُها: امرأة تُنجب كلَّ هذا العدد من شخص لا بدَّ أن تعرفه أكثرَ من امرأة أنجبت اثنين منه! وأعادتْ سؤالها: إلى أين؟ وكأنّها لا تريدني أن أبتعد، وكأنها تريدني أن أكون زوجتك وليستْ هي!

- ألم يقولوا إن هناك جريحًا؟ سألتُها.

- قالوا، وقالوا إن إصابته خطيرة، وإنه في غيبوبة قد لا يصحو منها، نصف رأسه طار!

فعدتُ لمكاني.

***

ليس أقلّ من عشر بيوت عزاء أُقيمتْ من "جباليا" إلى "الشاطئ" إلى "النصيرات" إلى "البريج"، "المغازي"، "دير البلح"، حتى "خان يونس". وقال لي بعض الناس الذين عزَّوْني، إنهم ذهبوا وقدَّموا العزاء في "رَفَح" أيضًا.

حتى رندة ولميس، لم تعرفا شيئًا من أخويها، جواد وسليم، اللذين ظهرا في الجنازة، الجنازة التي تحوّلتْ إلى مظاهرة، لم تعرفا إن كنتَ أنتَ، أم أنكَ شخص آخر، شهيدٌ آخر. قالا لها: هذه مسائل تكشفها الأيام، وليس نحن!

لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة.

قالت: أخافُ أن أبتعد فتأخذه امرأة غيري!

- دعيه ينام. قلتُ لآمنة. دعيه ينام.

لقد شاهدتُ الكثير في "غـزَّة"، وسمعتُ عن الكثير هناك في "الضّفة"، لكنَّ ما حدث هنا، في مقبرة الشهداء، كان شيئًا أراه للمرّة الأولى.

نساء كثيراتٌ تحلَّقنَ حول القبر يبكينَ من فيه. كلُّ واحدةٍ منهن كانت على يقين بأن مَن في القبر هو زوجها، ابنها، أو أخوها، أو حبيبها. وكلّ واحدة منهن، كانت تبكيه وتتطلّع لبابِ المقبرة، فلعلّه يأتي فجأة ليقول لها: وما الذي تفعلينه هنا؟!

لم يكن هناك ما يشير إلى أنّه هو، سوى ذلك الإحساس الغامض الذي ينتشر في القلب ويُطبِقُ عليه من جميع الجهات، مُحوِّلًا إياه إلى قطعة من أسى.

قلتُ لها: دعيه ينام.

فقالت: أخافُ أن أبتعد فتأخذه امرأة غيري!

***

لم تكن نظراتُ النّسوة أقلّ حزنًا وخوفًا على مَنْ في القبر من آمنة.

لكنّهن قَبِلنَ بتقاسم ذلك الحسّ، بحيثُ كان يمكن بعد أيام أن يتلاشى ذلك الشّعور الغامض الذي يسكن كلّ واحدة منهن لإقصاء الأخرى بعيدًا.

ثمة أولادٌ حضروا، بكوا قليلًا، بكوا كثيرًا. وبعد أيّام كان يمكن أن تشاهدهم يلعبون بين القبور معًا، كأخوة، يدركون أن مَن في القبر أبوهم. ولعلّهم وصلوا إلى تلك النتيجة التي لم يكن باستطاعة النساء الوصول إليها، حينما كنّ يتحدَّثن عن كل الشباب، بعيدًا عن المقبرة، ويقلن: إنهم أولادنا.

كأنهم قالوا: إنه أبونا!

ويومًا بعد يوم، أصبحتُ أسمع حكايات مختلفة عن ذلك الشّخص الذي تتشبثُ به أحزانهن.

أحيانًا، كان شخصًا مُطاردًا، وأحيانًا، كان في طريقه للبيت، أو في طريقه للمظاهرة، أو في طريقه للجنازة، أو في طريقه لشيء لم يكن يعلم ما هو..

تقول واحدة: لقد تزوَّجنا منذ ستة أشهر! كيفَ يقتلونه هكذا، كيف لا تتاح له الفرصة لمشاهدة ابنه؟! وتحتضن جنينها كما لو أنه فوق صدرها.

وتقول أخرى: إنه خطيبي، وتذهب بعيدًا في رثائه ورثاء أبيضها الذي حلمتْ به.

وتقول ثالثة: كان يقول لي: كلّ هذا الموت، ورغم ذلك عشنا وسنعيش لنشاهد أحفادنا بأعيننا. كان فَرِحًا لأنه سيصبح جَدًّا! حين تزوّجنا كان في أوائل العشرينات من عمره وكنتُ في التاسعة عشرة. فأقول له: وإن شاء الله نتحرر وتشاهد أبناء أحفادك، فيقول لي: الموت أصبح أكثر!

كان يعرف أنه لـن يُـشاهد حفيـده. شيء يُقَطِّعُ القلـبَ أن تكـون عـلى مسافة خطوات من إنسان ستراه، إنسان تتمنّاه، وفجأة يفقأون عينيـكَ عـلى هذا النّحو.

وتقول رابعة: ليس لي غيره هنا، لا أحد لي غـيره هنـا. أهـلي مـشتّتون في الخارج، كلّ واحد في بلد.

وحين يأتي المساء، تُلملم أم الأبناء أبناءها من بين القبـور، أو يـأتي أبنـاء بأنفسهم لإعادة أمهم للبيت، وتُلملم الصَّبيَّة أسْوَدَها، وتنسلُّ بهدوء فتاتـان تأتيان معًا، وتذهبان معًـا. كـل مـا سـمعتُه: أنـه كـان الأخ والأب والابـن والخطيب لها. وتضيف واحدة منهما: وأكثر.

فتحترم النّسوة الأخريات أحزانها ولا يذهبن في أسئلتهن أبعد.

وتبقى آمنة.. آمنة التي تحوّلت إلى حارسة للقبر.

***

في الصّباح، تأتي كلّ واحدة منهن لها بطعام، لكن يدها لم تكن تمتـدّ إليـه. وغالبًا، عند الضُّحى، يأكل الأولاد كلَّ شيء.

فجأة لم تعد الخطيبة تأتي. غابتْ ثلاثةَ أيام. قالت امرأة: لا بـدَّ أن نـذهب لنسأل عنها، ليْكونْ صار إلها إشي! لكنها جاءت في اليوم الرابـع، جلـستْ. سألْنَها: ماذا حصل؟ فظلتْ صامتة. ثم بكتْ كثـيرًا. إلى ذلـك الحـدّ الـذي جعلَ كل امرأة موجودة تحسُّ، بأن هذه البنت لم تبكِ كـلَّ هـذا البكـاء، إلّا لأنها تأكدتْ مِن أنَّ مَنْ في القبر خطيبها.

– هل أفاقَ الجريح من غيبوبته وتحدَّث؟ سألْتها واحدة.

– لا.

– ولماذا تبكين؟

- لأنني، لا أعرف ماذا أقول لكنَّ. لأنني خجلة من نفسي، لأنني بكيتُ أمس فرَحًا. لأنه عاد!!

عمَّ صمتٌ عميق..

ولم تكن الواحدة منهنَّ قادرةً على إيجاد الفرق بين أن تهنئَ هذه الصَّبيَّة بعودة خطيبها، أم تبكي نفسها لأن إمكانية أن يكون مَنْ في القبر قد أصبح شهيدها أكثر!

- لقد تزوّجنا وأنجبنا، وفرحنا بأولادنا، ولكِ الحقّ في أن تفرحي مثلما فرحنا. مبروك. قالتْ لها المرأة التي أوشكتْ أن تكون جدَّة.

فبكت الصَّبيةُ أكثر.

- كيف سأذهبُ وأتركَكن هنا، وحدكن؟!

- لأنه لا بدّ من أن تذهبي. اذهبي.

- لو كنتُ أعرف اسم الشهيد، لكنتُ أسميتُ ابني على اسمه. ولكن في هذا القبر أسماء كثيرة!

- تزوَّجي وانجبي، آخر شيء مُهم هنا هو الأسماء. أُنظري إلينا، كل واحدة منا تحمل اسمًا لهذا الذي تحت التراب، ولكن الشيء الوحيد المؤكَّد، ليس الأسماء، إنه ذلك الإنسان الذي في داخله.

عند الغروب، كانتْ تلك الصَّبية هي الأكثر حِرصًا على ألاّ تكون أوّل من يتركَ ذلك القبر. ظلتْ جالسةً إلى أن بدأ أولاد كثيرون يتصايحون ويبكون، فاضطرَّتْ أمهاتهم للعودة بهم. وحينما نهضتْ أخيرًا، قالت: سأعود.

فخرج النداء من أكثر من فم: لا. لا تعودي!

***

بين حين وآخر، كانت تعـود، في يـديها سـخانُ شـاي وبعـض الطعـام، تجلس صامتة. فأحسُّ أن أكثر من واحـدة تـشجّعها عـلى ألا تكـون حزينـة بفرحتها إلى هذا الحدّ.

تبكي كثيرًا أو قليلًا، وتختفي.

بعد أسبوعين، لم يكن قد تبقّى سوى خمس نساء يأتين كلّ يوم.

- لم يبق سوانا، خمس نساء. قالتِ امرأةٌ وصمتتْ.

- لكن الذي في القبر واحد. قالت أخرى.

- أظن أننا أربع نساء، ولسنا خمسًا. هناك واحدة قـصفوا بيتهـا اليـوم في المغازي. استشهدتْ.

- مَن؟

- أم فؤاد.

فجأة نسين مَن في القبر، وبدأنَ يبكين رفيقة حزنهنّ.

- لقد استشهدتْ قبل أن تعرف إن كان مَن في القبر زوجها أم لا.

- ستعرفُ قبلنا!

- تعرفُ قبلنا؟!

- نعم ستعرفُ قبْلنا.

***

الشيء الذي كنتُ أحسُّه، أن دموع آمنة، كانـت تنهمـر متبعثـرة في كـلّ الاتجاهات، كأنها تبكي مليون شخص في لحظة واحدة.

- عليكِ أن تعودي لنادية، لصالح. أقول لها.

- هل تعبتم منهما؟

لقد أصبحا جزءًا من أُسْرَتنا منذ ذلك المساء، لكنَّ الشيء الذي كان يؤرِّقنا، هو بكاء أمي الذي يتفجَّر دون موعد كلّما راحت تُطعم أو تنظِّف نادية ابنة العامين: ولماذا البكاء الآن، أتريدين أن نُعذِّبَ صالح أكثر؟

فتمسح دموعها بطرف كمّها.

ثم أصبح بإمكانها أن تحبسها طَوال النهار، وما إن يناما حتى تبدأ بكاء مستمرًا. وحين أسألها: لماذا البكاء الآن. تسألني: إنتِ مين؟ لميس والّا رندة؟

- والله ما أنا عارفة يامّا!!

- تسألينني لماذا البكاء؟ ومتى سأبكي إذًا؟ لماذا لا نبكي كلنا؟ كلنا يا ابنتي، مرّة واحدة، من أول "غزَّة" حتى آخرها، لماذا لا نبكي؟ هل يجب علينا أن نُزغرد طوال الوقت، لماذا؟ لأن أولادنا شهداء. ولكنهم أولادنا. كلّ يوم، كلّ ساعة، كلّ لحظة أنتظر أن يدقَّ أحدهم الباب ويأتيني بالخبر الذي لا أريد سماعه. كل هذا الخوف عليهم، كل هذا الخوف، وفي النهاية يجب أن أزغرد. أتعرفين لماذا تبكي الأمهات خوفًا على أبنائهن طَوال الوقت؟ لأن عليهن أن يزغردنَ مرةً واحدة. واحدة فقط. كي لا يخجلنَ من هذه الزغرودة التي يطالبهنَّ العالم بها. تبكي الواحدة منّا طوال الوقت لأنها تعرف أن هنالك لحظة آتية، ستكون فيها مضطرة لأن تخون أحزانها، حين يكون عليها أن تزغرد. ثم هل تعرفين من هو الذي يجبرنا على أن نزغرد فعلا؟ لا ليس أهلنا وأقاربنا وجيراننا، لا ليسوا هُم، الذي يجبرنا على أن نزغرد في جنازات شهدائنا هو ذلك الذي قتلهم، نزغرد حتى لا نجعله يحسَّ لحظة أنه هزمنا، وإنْ عشنا، سأذكِّرُكِ أننا سنبكي كثيرًا بعد أن نتحرّر!، سنبكي كل أولئك الذين كنا مضطرّين أن نزغرد في جنازاتهم، سنبكي كما نشاء، ونفرح كما نشاء، وليس حسب المواعيد التي يحدّدها هذا

الذي يُطلق النار عليهم وعلينا الآن. فنحن لسنا أبطالا، لا، لقد فكّرت طويلًا في هذا، وقلت لنفسي نحن لسنا أبطالًا، ولكننا مضطرّون أن نكون كذلك.

***

ذلك اليوم، قلقتُ كثيرًا على أمّي، قلقتُ على أخويّ.

في الصباح، حملتْ أمّي نادية وأمسكتْ بيد صالح وذهبنا للمقبرة.

من بعيد أبصرتُهنَّ..

كلّما كان عددهن يقلُّ، كنتُ أخافُ أكثر. فقد كان حزن غيابه موزعًا على عدد أكبر.. وكلّما اختفتْ واحدة خَلَّفَتْ حصَّتها من الحزن فوق قلوب الأخريات.

احتضنتْ آمنة ابنتها، لكنها لم تكن تبكي. شيء ما في داخلها، كان يجعلها أكثر تماسكًا كلَّما لمحتْ صالح.

- قلتُ لكِ. إنه لي.

- لا تقطَعي الأمل. قالتْ لها أمّي.

وقلتُ: سأذهب اليوم للمستشفى، وأسأل.

كنت أقرأ تاريخ الاستشهاد فوق الشّاهدة المؤقتة. وأتساءل: أيّ اسم سيُكتب فوق هذا التاريخ؟ هل يبحث التّاريخ عن الأسماء ليملأ هذا الفراغ المخيف؟ أم تبحث الأسماء عن التاريخ ليكون لمرورها معنى وأثر؟ وما هو الذي يتعذَّب أكثر في بحثه عن الآخر؟

قلتُ لها: سأذهب اليوم للمستشفى.

فقالت لي: لا تذهبي. لو لم يمتْ بسبب ذلك الصاروخ لمات بسبب غيابه عنّي كلّ هذا الوقت. إنه هو!

وذهبتُ. لكنني لم أجرؤ على العودة حاملةً ذلك الاسم، الاسم كلّه.

قالت لي قبل أن أتكلّم: كان عليك أن تُصدِّقيني. هل صدَّقتِ الآن؟

هززتُ رأسي.

كانت الفتاتان هما آخرُ من تبقَّى مع آمنة.

نهضتا، عانقتا آمنة دون أن تقولا شيئًا.. وابتعدتا..

وقلتُ في نفسي: هل ظلَّ شيء يُقال؟

لكن شيئًا ما دفعني أن أنهض وأجري إلى أن أدركتُهما هناك عند سور المقبرة.

حين أحسَّتا بخطواتي توقَّفتا.

إلى أن وصلتُ.

لم أكن ألهثُ تمامًا.

- كنا نعرف. قالتْ واحدةٌ منهما.

- كنا نعرف، لأننا منذ زمن طويل نعيشُ وحدنا. ليس لنا أحد، كنا نعرف.. إذ ليس لنا أحد!

حاولتُ أن أسأل. لكنها قالت: لا تسألي. وقالت الثانية: لم نكن نريد أن نتركه وحيدًا، لم نكن نريد أن نذهب قبل أن نطمئن بأنه لأحد. الآن تغيَّر الأمر! لن يكون وحيدًا بعد اليوم..

وابتعدتا..

حاولتُ أن أقولَ شيئًا، أيّ شيء، كلمة حتى، لم أستطع..

فجلستُ أبكي.

هل تعرفُ ذلك؟

أنا الآن وحدي معكَ

كلُّهن ذهبن، وبقينا وحدنا.

لكن، بين يوم وآخر يعود بعضهن:

الدّنيا بخير..

وحياتك الدنيا لسَّه بخير..

يأتين للاطمئنان عليكَ فيَّ، أو للاطمئنان عليَّ فيك.

صالح قالَ لي: أكان لا بدَّ من أن تحرقي الصُّور؟! كان يمكن أن يكون لدينا الآن ما يُذَكِّرنا به. وبكى.

ولم أكن أريد أن يحزن بوجود كل تلك الصّور بين يديه.

قلت له: أولم تعرف بأنهم قصفوا المقبرة. لماذا يقصفون مقبرة. إنهم لا يتعبون من البحث عن صور للذين قتلوهم. رندة قالتْ لي إنهم يريدون أن يتأكَّدوا من أن الذي قتلوه قد قتلوه تمامًا!

وقلتُ لصالح: سأعطيك صورةً واحدة. فقال: أريدها كلّها.

هل تعرف؟ أنا لا أعرف كيف أحسَّ الولد بأن الصّور كلّها موجودة هناك، مخبأة.

لعلّي كنتُ أخشى أكثر منه لحظة كهذه، ليس لديَّ فيها منكَ أيَّ شيء سوى الذّكريات. الذّكريات التي أحبّها وأكرهها، التي تأتي وتذهب، دون أن تُخلِّفَ لنا سوى الجنون. الذكريات التي تهرم فلا تعود قادرةً على استحضار وجهٍ واحدٍ نحبّه ونحتاجه في لحظة ما.

كلهنَّ ذهبن.

كان يمكن أن تكون قَدَرَ أيِّ واحدة منهنّ، بأن تكون قَدَري الذي يسكن خارج هذا التراب.

ليسَ أسوأ من أنْ أتمناك لي وأتمناك لهنَّ في الوقت نفسه.

لسنا ملائكة.

لكن الأسوأ أن تكون لي، وتصبحَ لسواي.

أم فؤاد التي استشهدت، تعرفها! كنتُ في لحظات كثيرة أظنكَ لها، أكثر مما أنتَ لأيّ واحدة منّا، أو لأيّ طفل، وحين استشهدتْ، قلتُ إنكَ لها فعلًا، وإن ذلك الذي في القبر كان يستحق أن نُبدي له شيئًا كبيرًا، لم نُبده، كي يكون لواحدة منّا؛ كان يستحقُّ الذهاب إليه، وهي ذهبتْ، ذهبتْ شهيدة، ولا شيء آخر، وقلتُ إن الله يحبُّها أكثر منّا. وتساءلتُ: ما الذي فعلناه هنا على هذه الأرض كي نستحقّ كلَّ هذا العذاب؟ كلّنا أحسسنا أنها أخذتكَ، وللحظات كثيرة كنتُ أعتقد أن التراب الذي نجلس حوله فارغ، لأنك غادرته؛ أما الأطفال فكانوا أصغر من أن يكونوا علامةً على شيء لم يعودوا يرونه، سوى صالح، صالح الذي صمتَ تمامًا. ولم يعد يهمّه شيء حتى لميس.

قلتُ لها: خذيه للبحر يا ميس. خذيه للبحر. فلعلّه يُغْرِقُ أحزانه هناك، لعلّه يفيض فيقول لكِ شيئًا مما به. لكنه رفض.

أما نادية، فنعمة الجهل بما يدور كانت أفضلَ شيء بالنسبة لها.

حتى أنها تضحك!

قبل أيام أفلتتْ من بين يدَي أم جواد وراحت تركض بين القبور.

الأطفالُ لا يعرفون شيئًا عن أولئك الذين فيها.

وضحكتْ، فأحسستُ بخجل شديد، كأنني أنا التي أضحك، أليستْ قطعةً مني، خرجتْ من لحمي، وسارتْ هكذا أمامي كمعجزة. نعم تصوَّر هذا: قطعة من جسمكَ، تكبر وتكبر وتكبر، وأنت تنظرُ إليها، ثم فجأة تنفصلُ عن جسدك، وتبدأ بالبكاء، ثم بالضّحك، ثم بالهرب منكَ، في البداية تدركها، ولكنها ما إن تجد أجنحتَها الكاملة حتى تطير وتبتعد. نحن نتناثر عبر أولادنا، أتعرف لماذا؟ لأننا نحرص حين يجيءُ الموتُ أن يكون جزء منا قد أفلتَ منه. ولكنه يدركهم. تقول لي؟!!

نعم يدركهم، لكنّهم يكونون بدورهم قد تناثروا في أبنائهم أيضًا.

لست وحدكَ المطارد، كلنا مطاردون هنا.. كلّنا.

لكنني أعرف أن نادية تركض نحو فقدانك، أعرف أنها كلّما ابتعدت، اكتشفتْ أنها تسير للوراء، إليكَ أنتَ، إلى سؤالها الذي ستحمله ذات ليلة إليَّ، سؤالها الكبير الثقيل الذي لا يحتمله قلب طفل، أين أنتَ؟ وسأبحث عن إجابة قد يحتملها قلبي وقلبها.

قلتُ لك: نحن وحدنا الآن.

هل أصبح الوضع أفضل، أعني جسدك، هل أعادوا لك بقية أجزائه؟ نولد كاملين، فلماذا نموت على هذه الصورة؟!

أم جواد قالت لي: عليكِ أن تعودي الآن للبيت. إلى ولديكِ. ورندة قالت لي الكلام نفسه. وجاءت لتكتب اسمك فوق ذلك التّاريخ المُعلَّق في الهواء بلا اسم يسنده، التاريخ المتأرجح، التاريخ الذي قالتْ لي عنه رندة إنه تاريخ ظالم لأن مائة عام من التّضحيات لم تُقنعه بأننا أولادُ هذه الحياة أكثرَ من أيّ كائن آخر يتفنّن في اقتلاعها. التاريخ الذي قالت عنه إنه لا يشبع وأنه كالنار. وها نحن، نصرخُ في وجهه: تريد أكثر، خذ، ونبكي. تريد أكثر، خذ. ألا يكفيكَ اليوم من قُتِلوا فرادى؟ تريد مجزرة، خذ، ونبكي. وما زلنا نجري نحو تلك اللحظة التي سيقولُ لنا فيها فجأة: اكتفيت.

سأعود لكَ. نعم، عليَّ أن أذهب، لأنك تقولُ لي اذهبي، لا لسبب آخر.

سأعود إليكَ. ولكنني لم أكن أعرف أنني سأعيش إلى أن أرى اثنين منّي في مقبرة واحدة.

حين استشهد مصطفى، قلتَ لي: لا تخشي شيئًا فأنا معكِ؟ كان هذا يقويني قليلًا، رغم أنني أعرف أن مصطفى لم يعد معي، ولن يعود، بعد أن أطلق المستوطنون الرّصاص عليه لأن السيّارة التي كان فيها كانت تحاول تجاوز سيارتهم. هل تتصوّر! أهذا سبب كاف كي يموت الإنسان هنا؟

ذاتَ مرّة قلتُ لكَ: ما دام هذا قَدَره، فالحمد لله أنه استشهد قبل أن يعرفه صالح ونادية. كانت ستكون كارثة؛ تصوَّر كيف يمكن أن يحتملوا فراق شخص مثله. ولكن ما يعذِّبني أنه راح بلمحة عين، بلا سبب.

سأعود.. لا تقلق علينا.

لا، لا تقلق علينا..

لن نبتعدَ إلى مسافة تمنعكَ من أن ترانا.

سنظل في مرمى بصرك. أمامك، حولك.

يعذبني أنني كنتُ أحسُّ دائمًا أن الحياة ستكون قصيرة معكَ، حتى لو عشنا معا مائة سنة. يعذبني أنني أحسستها قصيرة، وها هم يأتون من كل الجهات بدباباتهم وطائراتهم وجنرالاتهم كي يجعلوها أقصر. كما لو أن كلَّ سنة يقتلعونها من روحنا ستضاف إلى أعمارهم ويعمَّرون للأبد.

سأعود إليك.

لن ابتعد.

أمس سألتُ رندة؛ أتَرى لقد عادتْ إليَّ القدرة على أن أسأل من جديد! أمس سألتُ رندة التي لم تعد تقول لي فجأة إنها لميس! سألتها عن الفتاتين اللتين لم تبتعدا عن ترابك منذ ذلك اليوم. قلتُ لها يا رندة، كانتا حزينتين دائمًا، ولكنهما لم تتكلّما كثيرًا. أليس كذلك؟ هناك سرٌّ تخبئانه عميقًا، ولا تريدان البوح به. سرٌّ صعب. أخشى أن يكون متزوِّجًا من إحداهما! وإلّا، أين كان ينام في اختفائه الطويل؟ وكنتُ سأسألها، وأحسستُ بأن أكثر من امرأة كانت ستسأل. ولم نسأل. أتعرف لماذا: لأننا في لحظة ما اكتشفنا أننا نحبّك كلّنا. لأنك لم تكن ربما لأيّ واحدة منا تمامًا. أما بعد أن أصبحتَ لي، فقد سألتُ رندة. فقالت لي، لن تصدِّقي ما سأقوله لكِ.

فأقسمتُ لها أنني سأُصدِّق.

فقالت لي: رغم ذلكَ لن تُصدِّقي.

فقلتُ لها: سأصدِّق.

ها أنت مثلي تريدُ أن تعرف!

أحسُّ بذلك

لا تقل لي إنك لا تريدُ أن تعرف!

لا أظن أن أحدًا يملك القوةَ كي يمنع نفسه من أن يعرف حين تكون هناك فتاتان بهذا الجمال وتتلمسان ترابه بذلك الحنان.

- تَعِدينَ بأنك ستصدِّقين إذن؟ قالت لي.

- أعد، من شان الله يا رندة، يكفيني ما فيَّ.

فقالت لي، هكذا، قالت لي، بهدوء حيَّرني: إنهما ملاكان!!

- لأْ، مستحيل.

- كنتُ أعرفُ أنكِ لن تصدِّقيني. قالتْ لي.

عند المساء،

رأيتهما تعودان، رأيت أجنحتهما لأول مرة، وكانتا أجمل من قبل. أجمل بكثير.. رأيتُ بعيني هاتين ضوءهما الشفاف، وظلتا تقتربان حتى وصلتا إلي. وفجأة سمعتُ صوتهما؛ الصوت الذي لا يشبهه صوتٌ آخر، صوت من نور، ألقتا عليَّ أجنحتهما وقالتا لي: اذهبي الآن. لا تخشي عليه. لن يكون وحيدًا معنا، سنظلُّ هنا إلى أن تعودي.

وهكذا كل مرة:

ما إن أصل إلى بوابة المقبرة وأرى ترابَك، حتى أبصرهما، تنهضان، ثم تنسلان بخفة الملائكة التي لا تجرح حتى الهواء، تلوِّحان وتغادران المقبرة من الجانب الآخر.

أمس.

كل شيء أصبح بالنسبة لي أمس، حتى اليوم، أتعرف ذلك؟!

أمس، قلتُ لرندة: لا تضحكي عليَّ يا رندة، صحيح أني إنجنَّيت، لكن لا تضحكي عليَّ. لم يستطع أحد أن يثبت أن الملائكة ذكور وإناث، فكيف استطعتِ أنتِ؟ كيف؟!!

فأخبرتني بقصتهما من أولها إلى آخرها.

تلك كانت المرّة الأولى التي أحسّ فيها بأن البشر يمكن أن يكونوا ملائكة فعلا.

قلت لها: الآن صدَّقتُ.

لم نكن نظنُّ

أن صور جمال التي خبأتها آمنة، ووضـعتْها ذاتَ صـباح بـين يـدَي ابنـه، ستبعث الحياة فجأةً داخل ذلك الطفل، وتحيله إلى كائن آخرَ تمامًا، كائن غير ذلك الذي عرفناه منذ بكائه الأوّل وضحكته الأولى..

يحملُ الصُّور، كما لو انه ذاهبٌ في مهمّة، بعد أن يـشدّ حزامـه، ويمـشِّط شعره. ويسأل أمه مرّتين: هل أشبهه فعلًا.

- تشبهه كثيرًا.

- ما الذي ينقصني لأشبهه تمامًا؟!

- ينقصكَ أن تكون بعمره فقط، أن تكبر!

- فقط؟! أظن أن شعره كان أطولَ، سأطيل شعري. يجب أن أشبهه منذ الآن.

تهزُّ آمنة رأسها، وتقول له: دير بالك على حالك.

***

يطرقُ الباب الواصل بين بيتينا.

تفتحُ لميس. يرتبك. يتراجع خطوتين. أُبصره. أدعـوه للـدّخول، يـدخل مرتبكًا. وجود لميس كان كافيًا، دائمًا، لتحويل الصَّبي إلى بِرْكة عرَق، فكيف وهو على هذه الحال، بشعره المُرتَّب، وحزامِه المشدود، ووجهه المضيء؟!

- سأترككما وحدكما. تقول لميس. وتخرج.

أراقبه وهو يتابعها بعينيه، موشكًا على البكاء.

- ما هذه الشّياكة يا عَمْ صالح؟! أقول له.

فيهمس لي: وطِّي صوتك.

فأهمسها همسًا: ما هذه الشياكة يا عم صالح؟

- هل أشبهه؟

- من؟

- أبي.

أُرجِعُ رأسي قليلًا، أنظرُ إليه، تتغـيّر ملامحُـه، كـما لـو أنـه ينتظـر نتيجـة امتحان ستقرر مصيره للأبد.

- الحق يقال. تُشبهه.

- إلى أي حد؟

- كثيرًا.

- أمي قالت لي هذا الكلام، ولكن كيف يُمكن أن أشبهه تمامًا؟

- بسيطة.

- كيف بسيطة؟ قولي لي.

- أن تكبر.

- ما الذي يحدثُ في هذا البيت. أمّي تقول كلامًا، وتعيدينه أنتِ.

- هل قالت أمكَ هذا الكلام؟

- بالحرف!!

- إذن عليكَ أن تصدِّقنا.

- ولكنني أريد أن أشبهه الآن.

وبين لحظة وأخرى، لا ينسى أن يُلقي نظرة نحو باب الحوش خائفًـا، أو متمنيًا أن تظهر لميس.

- أين ذهبتْ؟

- من؟

- ..

- تقصد لميس؟

يهزُّ رأسه. لا بد أنها عند جدتي، أو ربما تُساعد أمّي. أناديها؟!

- لا.

- ولماذا تسأل عنها؟

- لا أعرف؟

- ولكنني أعرف.

- تعرفين ماذا؟

- أنك تعزّها كثيرًا. صحيح؟

- صحيح.

- أقصد كثيرًا جدًا. صحيح؟

- صحيح.

- أقصد كثيرًا جدًا جدًا. صحيح؟

- هل رأيتِ كلّ صورِه؟

- مَن؟

- أبي.

بسؤال واحد كان يستطيعُ الإفلاتَ. ولم أكن بحاجةٍ لإجابته كي أعرف. فهو يعرف أنني أعرف. كان هذا يربكه أحيانًا. وبخاصّة، حين تظهر لميس فجأة، فتتحوّل الأنظار كلُّها إليه. كما لو أنه هو الذي دخل، في الوقت الذي تشيح هي، بوجهها بعيدًا.

منذ أيام قالتْ لي: كلّ حياتنا دُمِّرت، لدرجةِ أنني أتمنى النّزول إلى الشارع، شارعنا، وأن أُعطي صالح ما يريد، فقط، من أجل أن يقول لي بصوت عال أحبُّك يا لميس. ولكنني أعرف أنه لن يقولها. ثم ما هذا الذي أفكر فيه؟! ولد قَدْ نُصّي يقف في الشارع وينادي كما لو أنه يبيع الخيار: بحبّك يا لميس! تعرفين يا رندة: أظن أنها كانت جميلة جدًا حين كان يقولها في الماضي. جميلة ومقبولة، صحيح أنها كانت تُغيظني في بعض المواقف، لكنّني الآن اكتشف أنها جميلة. لعلها أجمل شيء حدث في شارعنا منذ وِلدتُ. لم يعد صالح ذلك الطفل الذي كان يا رندة، مع أن ما مرَّ من سنوات ليس كثيرًا، ولم نَعُد نحن، لم نعد حتى نحن تمامًا؛ كلنا نشبه أنفسنا كثيرًا، لكننا لا نشبهها تمامًا، فهناك في الداخل أشياء كثيرة تتمنى أن تخرج وتحتلّ ملامحنا التي لا تشبهنا وخوفنا الذي لا يُشبهنا، وأحزاننا التي لا تشبهنا، وأفراحنا التي لا تشبهنا.

قلتُ لها: مسموح لي أكتب هذا الكلام.

فقالت لي: مسموح. اكتبي. أظن أن كلَّ ما سيبقى في النهاية هو هذا الكلام.

وكتبتُ في دفتري أيضًا: الحرية هي الشيء الوحيد الذي يجعلك تشبهُ نفسك، ويجعل الشارع يشبه نفسه والبحر نفسه والسماء نفسها والصباح نفسه وقهوة جدّتي نفسها والزهور نفسها والحب نفسه والعمر نفسه والطفولة نفسها والشيخوخة نفسها والمقبرة نفسها -حتى المقبرة لا تشبه نفسها هنا- لأنها ليست حرّة، ليست حرّة في أن تكبر يومًا بعد يوم بصورة طبيعية. حتى المقابر تُولد وتهرم كما يريدون لها لا كما تُريد.

- هل سيدفنونه هنا؟

- لا هناك!

- هناك؟

- ولماذا؟

- لأن المقبرة امتلأت.

- امتلأت، ولكن كيف؟

- لأن الموتَ كثير. فقط لأن الموتَ كثير.

***

قلتُ للميس: حِبّيه شوي.

- إذا كان الأمر هكذا فحبيه أنتِ، ثم ماذا أحبّ فيه وهو صغير إلى هذا الحد؟

- بعد سنوات ستكتشفين أنه أصبح شابًا، وسينتهي هذا الفرق الذي أراه يتلاشى، الفرق الذي يجعلكِ الآن صبيّة كبيرة، ويجعله صبيًّا صغيرًا.

- إنه ولد.

- لا، إنه أكبر قليلًا.

***

أتلفَّتُ حولي، فأكتشف أن صالح اختفى.

أخــرجُ للحــوش، أُشْرِعُ البــابَ الحديــدي عــلى الــشارع. أتلفَّــتُ في الاتجاهينِ، أراه يطْرُق بابَ جيراننا.

تخرجُ الجارة. يبادرها بالسؤال.

- هل رأيتِ صورَ أبي؟

وأسمع الصوتَ: لا.

- سأُريكَ إياها إذن.

- طب أُدخل.

- شكرًا، وراي شُغُل!

تظهر الجارة على العتبـة، ويبـدأ هـو باسـتعراض الـصّور، واحـدة بعـد أخرى. وحين ينتهي يسألها: هل يُشبهني؟

- كثيرًا.

- لماذا لا يقول لي أحد انه يُشبهني تمامًا؟!!

ترتبكُ الجارة، وأراه مُتَّجها للبيت التالي، يطْرُقه.

كلّ من في الحارة رأوا صور جمال التي يحملهـا بـين يديـه خائفًـا عليهـا، ومحاذرًا أن يلمسها أحدٌ غيره.

حين يرى يدًا تمتدّ، يُبعد الصُّورَ فجأة.

- ممنوع اللّمس! يقول.

ولكنه يعود حزينًا، يقـول لي: لا أحـدَ يقـول إننـي أشـبهه تمامًـا، كلّهـم يقولونَ لي: تُشبهه كثيرًا. هل عليَّ أن أسأل لميس أيضًا.

- لميس؟

أُفاجأُ بسؤاله.

- يا ريت.

- لماذا يا ريت؟

أرتبكُ: لا لشيء، ولكن أظنُّها كانت تستحقُّ أن تُسأل منذ البداية.

- هل تعنين بأنني تأخَّرتْ.

- أبدًا. في مسائل كهذه، لا يكون هناك أي تـأخير. المهـم أن تَحْـدُث. أن تسألها.

- لميس. لميس.

- لا ، لا تناديها الآن.

- ومتى سأناديها؟ لميس.

تُطلُّ لميس بسرعة كما لو أنها كانت طوال الوقـت خلـف البـاب قريبـة، وأنسى أن حوشنا ليس أكثر من سبع خطوات.

- شو في؟

- صالح حابب يسألِك سؤال.

- إسأل!

أنهض لأخرج، وفي طريقي ألكزُها، لكي تُحَسِّنَ لهجتها معه.

- ابقي هنا. يقول لي.

- سأصل الحمَّام وأعود بسرعة.

لكنني أقف على بُعد خطوتين من الباب.

في داخل الغرفة يهبطُ صمتٌ، إلى حدّ أنّني لو لم أغادرها منذ لحظات وأنا أعرف أن هناك اثنين في الدّاخل، لظننتُ أنها فارغة.

- كيفك صالح؟

- مليح. بس مش كثير.

ويعود الصمت من جديد.

- أظن أنكَ تريد أن تقول لي شيئًا. صحيح؟

- صحيح.

- وما هو؟

- أريد أن أسألكِ سؤالًا.

- اسأل.

- ولكن عليَّ أن أريكَ أولًا صور أبي، وقبل ذلك، هل تعاهدينني أن تقولي الصِّدق.

- أُقسِم.

- تُقسمين على ماذا؟

- أن أقول الصِّدق.

- الآن المسائل واضحة. فالأولاد يُخفون نصفَ الكلام دائمًا، كي يُقْسِموا بشيء وهم يفكرون بشيء آخر!

- اطمئن.

ويعود الصّمت من جديد. وأكاد أسمعُ احتكاك الصّور؛ ثم أسمعه يقول: معلش، بإمكانك أن تمسكيها بيدك.

يهوي قلبي في الخارج.

هل سمحَ لأحدٍ أن يلمس الصُّورَ أخيرًا.

- آ، هل يشبهني؟!!

- الصحيح؟

- آ، الصحيح، ألم تُقسمي؟!!

- الصحيح.. يشبهكَ تمامًا.

فجأة أسمع صرخةَ الصبيِّ كما لو أنه يتابع مباراة كرة قدم يحقِّق فيها فريقه أجمل هدف ليصل إلى أجمل فوز.

- الآن عرفتُ لماذا أحبّكِ إلى هذا الحدّ!!

أستدير عائدة، فأجد لميس وحدها ساهمة.

أسألها: أين اختفى؟

فتشير إلى الباب الذي يُفضي لحوشهم.

لو كنت عمياءَ

لقلتُ إن الموت أكثر من الحياة هنا،

لكنني كلَّما أوشكتُ أن أصِلَ لهذه الحقيقة فتحتُ البـاب، واسـتندتُ إلى حلْقه، وتأملتُ هؤلاء الأولاد في الشارع.

يحيرني دائمًا أن هناك أفواجًا جديدة منهم، في عمر واحد، فجأة يبزغـون، هم الذين لم يكن لهـم أيٌّ وجـود هنـا. يبزغـون تمامًـا، مثـل نـوَّار اللـوز أو الليمون. أفواج كاملة، لم أكن رأيتُ أيًّا منهم من قبل. يتعثَّرون وينهـضون، وقبل أن يستطيعوا الوصول بمفردهم إلى نهاية الـشارع يـأتي فـوج جديـد، يملأ الشارع، ويدفعهم نحو الحارة الأوسع ليكون الـشارع للفـوج الجديـد ولقلوب الأمهات التي تتطلَّع من شقوق النوافذ والأبواب نـصف المـشرعة للاطمئنان عليهم.

لو كنت عمياءَ،

لقلت إن الموت أكثر من الحياة هنا.

الشيء الوحيد الذي لم أستطع تخيُّله حتى الآن، هو كيف يولَدون فجـأة، ويكبرون فجأة، ويغادرون الحارة فجأة، ويأتيهم الموت فجأة.

يحيرني هذا الموتُ الذي ينقضُّ ممزقًا دورةَ الحياة قبل أن تنتهي.

ما الذي كان يمكن أن يكونه أيّ واحد منهم، لو أتيح له أن يعيش ليتجاوز الحارات القريبة والبعيدة وقلقَ أهله عليه كلّما سمعوا رصاصًا أو هبط ليل؟

منذ أيام قرأتُ حوارا مع قنّاص إسرائيلي يعترف فيه بأن قيادته تطلب منه عدم إطلاق النار على أيِّ طفل عمره أقل من اثني عشر عامًا، يجب أن يكون عمره أكبر من ذلك حسب التّعليمات. فسألتْه الصحفيّةُ: ولكن كيف تعرفون أن الطفل أكبر من ذلك أو أصغر، وأنتم هنا خلف الحواجز أو فوق الأبراج؟!!

فأجاب القناص: نحن لا نستطيع أن نطلب من كلِّ طفل إبراز شهادة ميلاده قبل قتله.

صالح حملَ الصُّورَ، ومضى إلى هناك، أبعد، إلى ذلك المكان الذي استشهد فيه والده، ظلَّ يسأل إلى أن عرفَ المكان، وفوق ما تبقَّى من رمادٍ كان يقف ساعات، وكلما مرَّ شخص أوقفه: هل تعرف هذا؟ إنه أبي، وهنا استشهد.

ذات يوم اختفى من أمام أعيننا، بحثنا عنه، لم نجده، سألنا في المستشفيات، في مراكز الأمن الوطني، في الحارات، ولم نعثر عليه.

كلّنا كنا نبكي خائفين أن تصل آمنة قبل رجوعه.

قالت أختي: لم يبق سوى مكان واحد.

سألناها: وما هو؟

قالت: المكان الذي استشهد فيه أبوه، لأنه سألني عنه.

ذهبنا، وجدناه هناك. حين وصلته نظر إليَّ، ثم سألني: هل تعرفين هذا؟!! إنه أبي، وهنا استشهد.

قلت له: أعرف.

وكان متعبًا لا يقوى على الوقوف.

عدنا به. وحينما وصلتْ آمنة، كان قد نام.

أرادتْ أن توقظه، لينام في فِراشه.

- دعيه هنا في بيتنا للصباح. الولد تعبان!

- ولكن كيف أنام هناك وحدي مع نادية؟

- نامي هنا. قالتْ لها أمي.

وكانت جدّتي تراقب المشهد بعينين دامعتين.

- لكن..

- لا لكن، ولا غيره. ياما نمْنا عندك.

***

لم يعد الاهتداء إلى مكان وجوده صعبًا، كلّما اختفى، ولكننا أصبحنا أكثر حرصًا على ألّا يختفي أصلًا.

ذات يوم قال لي: لم أعد أستطيع النوم.

وذات ليلة استيقظنا على صراخ آمنة؛

رحنا نجري نحو بيتها، حتى أن جدتي أفاقت على ذلك الصّراخ المجروح. وحين وصلنا، كانت تشير إلى فراش صالح غير قادرة على قول أيّ شيء، سوى صراخها.

اندفعنا نركض في الشوارع، أنا وهي وأمي.

قلنا للميس ابقي هنا، فمنذ استشهاد سامر صرنـا نخـاف عليهـا أكثـر، رغم أن سنوات مرت على ذلك اليـوم، شيء مـا كـان يجعلهـا تبـدو البنـت الأصغر للعائلة، بعيدًا عن الدقائق الخمس التي تفصل بيننا. وقد كان أكثـر ما يؤرقنا أنها لم تتحدَّث حول سامر أبدًا. كأنها لم تكن تعرفـه. كأنـه لم يكـن ذات يوم على بُعْدِ خطوات من هنا يُلوِّح لها عند زاوية الشارع.

بحثنا في شوارع المخيم كلّها، لم نجـده، قلنـا لعلّـه عـاد، وحـين وصـلنا وجدناه نائمًا.

أرادت آمنة أن توقظه. أمسكتْها أمي من يدها، وكانت ترتجف.

- دعيه. الولد لم يعد ينام. احمدي الله أنه استطاع أخيرًا.

***

أستعيد صـورتهما الآن: لميس وصـالح، وأقـول هنالـك شيء مـا كـان يربطهما أكثر مما يبدو على السطح.

شيء عميق، لا أستطيع أن أفهمه. ولم يكن خوفي من اختفائهما فجأة هـو الشيء الوحيد.

***

- لا أنام. فلماذا أتركهم ينامون. قال صالح لي. وقال: إن لميس عاهدته: وأنا لن أتركهم يستريحون في النهار!

وقال: وأنا عاهدت نفسي ألاّ أتركهم ينامون في الليل!

قلتُ له: اتفقتم أخيرًا.

فقال لي: نحن لم نختلف!

وعندما طلبتُ منه أن يوضِّح. قال لي: أنـا لا أعـرف شـيئًا. أعـرف أنهـا قالت لي هذا الكلام.

بعد استشهاد سامر، دخَلَت الغرفةَ، وقَلَبَت المرآةَ. وحينما دخلتُ وجدتُها تُحَدِّقُ في ظَهر المرآة كما لو أنها ترى صورتها.

استعدتُ صورة لميس التي تغيّرتْ فجأة، كما لو أنها اكتشفتْ وجود الأغاني في هذا العالم صدفة. فلم تعد تتوقّف عن سماعها. وأصبحتْ مشاويرها بين بوابة الدار والمرآة أشبه بخط سيرِ قطارٍ لا يستطيع التقاطَ أنفاسه بين محطتين لا ثالثَ لهما.

- ستُجنُّ هذا البنت قريبًا. تقول لي جدتي.

- لماذا؟

- مش شايفاها، طول النهار قُدّام المراية.

- لم أفهم.

- يا ستّي.. أقربُ الطرق إلى الجنون أن يقفَ الإنسان أمام المرآة طويلًا.

- لماذا؟

- لماذا. لسّه بتسألي!! لأنه يرى خياله في هذه الحالة أكثر مما يرى نفسه.

- وما الذي يعنيه هذا؟

- يعني أنه سيتذكر نفسه في المرآة أكثر مما يتذكّر نفسه خارجها. يعني سيتذكر نفسه ظلًا أكثر مما يتذكرها حقيقيةً، ومع الأيام لا يعود يرى سوى الصّورة، وبعدها يختفي الأصل!

- تخيفينني يا جدَّتي.

- لا، لا تخافي. أختك لسّه على برِّ الأمان! ما إن تتأكّد بأن ذلك المفعوص سيراها، وتتأكّد من أنه يحلم بها، حتى تخرجَ صورتُها من المرآة لأنها ستراه هو فيها. فيعود لها عقلها!

- والله ما أنا فاهمة.

- أصلك صغيرة. بدري عليكِ.

- يا ستي شو بدري عليّ، صحيح أن رأسي صغير، ولكن والله إنني أفهم كلَّ شيء.

- لكنك لم تفهمي بَعدُ كلامي.

- سأكتبه. ربما أفهمه ذات يوم. هل يمكن أن تُعيدي ما قلتيه.

- يا مصيبتي. وكيف سأعيد كلامًا مُهمًّا مثل الذي قلتُه مرَّة ثانية؟!! هذا الكلام لا يُعاد. لأنه يخرج هكذا مرَّة واحدة.

- على شاني.

- سأحاول. المعنى على الأقل!!

أذهب، أحضر دفتري، تعيد كلامها وأكتب. وحين أنتهي تقول لي: وما الذي ستفعلينه بكلام ستِّك. خوفي أن أراه في الجرايد حين تكبرين!

- لا، اطمئني.

- هذا الكلام لك وحدكِ يا رندة!! ما بدِّي الناس تصير تقول، بعد ما أموت، الشرِّ بعيد، وصفيّة قالت هيك وما قالت هيك!!

ثم تحدّق فيَّ: هذا كلام لك لأنك ستفهمينني. أنا عارفه إنه راسك صغير، بس أنا متأكدة إنه مخ صافي!

***

كما لو أن صالح هو الوحيد الذي يُذَكِّر لميس بسامر. نغمض أعيننا فنراه الأقرب إليها، وما إن نفتحها حتى تُقصيه بعيدًا، كما لو أنه السّبب في كلّ ما جرى. ويغدو تقرُّبه إليها معجزة تحققتْ في لحظة خاطفة ذات حلم لا علاقة له بالواقع.

***

هذا الأمر كان يربكه. يربكه كثيرًا، أكثر من مرّة بكى. قال لي: لكن لميس مش هيك.

فأطلب منه أن يشرح لي. فأكاد لا أصدِّق أُذنيّ.

كان أشدَّ ما تحرص عليه، أن تجعلنا نتأكّد من أنها لن تُسامحه. وحين نختفي يكون الشيء الوحيد الذي تفعله عكس ذلك.

وصرتُ أراقب المرآة، بل وصلتُ إلى حدّ أنني وضعتُ خيطًا كعلامة، لأعرف إن كانت تَقْلِبُها لترى نفسَها في غفلة منا، أم لا، وكان الشيء الذي أخافني أنها لم تكن تفعل ذلك أبدًا.

قلت لجدّتي كلّ شيء.

فقالت: لقد تسرَّبت البنت من بين أيدينا ونحن ننظر إليها!

أستطيع أن أناديها فتجيب.

أنا وحدي الذي أعرف أين هي. أنا وحدي الذي أستطيع أن أناديها فتجيب. قلتَ لي..

قلتُ لكَ: من شان الله يا صالح. ليس لي غيركما، أنتَ وأختك. لميس ستعود وحدها، هي كبيرة إلى ذلك الحدِّ الذي لن يجعلها تُضَيِّع طريق البيت.

- ولكن أبي كان أكبرَ منها ولم يستطع أن يعود!

وحين بكت رندة قلتَ لها: أعطيني صورتها. وحين قالت: بعدين. سأعطيكَ إياها بعدين. غافلتَهم وسرقتَ المرآة!

في البيت قلت لي: الحمد لله أن وجه المرآة كان طَوال تلك الفترة إلى الحائط.

وقبل أن أسألك لماذا؟ قلت لي: لأن صورة لميس بقيتْ فيها!

أنا أعرف كيف تُصبح الحياة صعبة لكنها لن تكون مستحيلة يا صالح، ما دمنا معًا، أعرف كيف يفتقد الإنسان الهواء فجأة، وكيف تُطبقُ الدنيا على

صدره، كما تُطبق مطْرقة على علبة معدنية فارغة. أعرف ذلك. ورجَوْتُك ألّا تغادر البيت قبل أن تخبرني.

أتذكُر حين قلتَ لي: لو لم يكن في العالم سوى لميس، وصمتَّ قليلًا، ثمّ قلتَ: وأنتِ، وصمتَّ قليلًا: وقلتَ: ونادية وأبي، وصمتَّ قليلا وقلتَ: ونحن وحدنا هنا، بلا جنود، كانت السماء ستكون أجمل والبحر.

لقد أعدتُ على مسامع رندة ما قلتَه لي، ففرحتْ، فرحتْ كثيرًا بما سمعتْ، ثم قالت لي إنها تخاف عليك، وتأكدتُ من ذلك حين سألتْني: مسموح لي أكتب هذا الكلام؟

فقلتُ لها: ولِمَ لا؟!

فذهبتْ وأحضرتْ دفترَها وراحتْ تكتب وتكتب. قلتُ لها: تكتبين أكثر مما قاله؛ ما قاله ليس بهذا الطّول. فقالت لي: لا تقلقي. إنني أكتب متى قاله، ولمن.

تعرفُ رندة، منذ عرفتُها كانت تجمع صور الشهداء الأطفال، وذات يوم أتتْ وبكت، لأن الصَّور أصبحتْ كثيرة، ثم رأيتُ حزنًا لم أره من قبل على وجه بشر. سألتُها: شو في يا رندة. فقالت: رغم هذا العدد الكبير من الصّور إلا أن هناك شهداء لم يسبق لهم أن تصوَّروا. الصّورة الوحيدة التي لهم هي التي التُقِطتْ بعد الموت. وبكتْ لأن بعض الصُّور كانت لا تشبههم، لأن وجوههم كانت مشوَّهة بسبب الرصاص والشظايا، بسبب الموت.

سألتْني: كيف أضع صورةً كهذه لهم بين الصّور وقد كانوا أجمل؟! يومها قلت لها: اكتبي عنهم، اكتبي بعضَ ما قالوه، ما حلموا به.

فلم تعد تترك أمها تذهب إلى أيّ بيت عزاء، دون أن تكون معها. وفي وقتٍ كانت فيه النساء يبكين ويتحدَّثن، كانت تبحث بين كلامهنَّ عن آخر ما قاله الشّهداء الصّغار، عن آخر ما فعلوه.

وحينما تعود للبيت، تجلس وتكتب، وحين أمرُّ بها أرى عينيها حمراوين بسبب الدّموع الكثيرة التي ذرفتها.

أسألها: تبكين! أما بكيتِ هناك؟

- بكيت، ولكن حين أكتبُ عنهم أحسُّ بأنني أعرفهم، بأنني أعيشهم وعشتهم، فأكتشف دائمًا أنني لم أبك هناك بما يليق بفقدانهم. هنا، حين أصبح وحدي، أحسّ بأنني أنا التي فقدتهم وأدرك أنهم كانوا لي.

وتقول لي: نفسي ينتهي ها الاحتلال قبل ما يخلص ها الدَّفتر.

كنت أنظر إلى دفترها، وأقول من أين اشترته كان أشبه بعشرة دفاتر مثبتة الواحد منها بالآخر. وقالت لي: أبكي أحيانا لسبب قد لا يخطر ببال أحد، حتى ببالك يا خالتي آمنة، أبكي لأن خطّي أصبح يصغرُ يومًا بعد يوم. وكلما نظرتُ إلى ما تبقَّى من صفحات بيضاء، وخرجتُ ورأيت الجنود في الشوارع، أعود وأبكي.

تعرف يا صالح، لولاها هذه البنت، لكنتُ انتهيتُ من زمن طويل. هل تلاحظ كيف تحدِّثني، وتُحدِّثك، وتحدِّثُ نادية، إنها لا تنسى نادية، وتحدِّثها كما لو أنها بنت كبيرة، في البداية كان الأمر يثير عجبي، أما الآن، فلا. هناك أشياء لا يمكن أن تُفْهَم، ويجب أن تظلَّ كذلك.

تعرف أن لميس لم تعد مثل زمان، كبرت، ولكنكَ كبرتَ أيضًا، كبرت واستطعتَ اللحاق بها، هذا الكلام قلتُه لرندة، ولم تستغرب، هي نفسها قالتْه للميس، أو قالت شيئًا يشبهه، أتذكر كيف أصبحتَ تنظر إليها أخيرًا. هناك شيء تغيَّر، ولم أكن بحاجة إلى أن أتوقَّع شيئًا وأنا أشاهده. فجأة رأيتُ ذلك الزَّغب الناعم الأسود فوق شفتكَ العليا. فجأة رأيت بعض الحبوب التي تناثرت على طرفي أنفك وعلى أرنبته بخجل. تعرف، دائمًا أحببتُ هاتين

الكلمتين: أرنبة الأنف. يومها أحسستُ بأنكَ صبي أرنب تقف على وجهه أرنبة أصغر.

ها هي نادية بدأت تضحك..

يُعجبكِ هذا يا شقيّة!

كنتُ على يقين، بأن هنالكَ شيئا تغيَّر، ولكن الذي لم يتغيّر هو إصرارك على الذهاب إلى ذلك الموقع الذي استشهد فيه أبوك، تُخرِج صورَه، وتريها لهم، ولم يكن أحد يبتعد مُشيحًا بوجهه، كانوا كلّهم يقفون ويعطونك الوقت الكافي لقول ما تريد. بعضهم يبكي، وبعضهم يراك أصغر عمرًا، يرونك طفلًا لم يكن من العدل إلقاء جبل من عذاب فوق صدره.

ولكن، أريد أن أقول لكَ شيئًا، ولا تضحك عليَّ، مثلما يضحك أبوك، هذا الضحك سببٌ كاف لأن أزعل عليكما:

- لقد كنتُ متأكدة من أن لميس ستكون زوجتك.

ها أنت تضحك. تضحك أم تبكي؟

تبكي.

لا. أريدكَ أن تضحك.

بحر غزّة فيه ما يكفيه، بحيث لم يعد بحاجة إلى أيِّ دموع.

***

الذي أفرحني، أن لميس، لم تأت مجنونةً للبحث عن مرآتها كما كنتُ أتوقَّع. وقد كنتُ حريصةً على أن أرى نظرتها للمكان الذي كانت المرآة مُعَلَّقةً فيه. فلم تُبدِ أي انفعال.

رندة أسرَّت لي: ان لميس لم تعد ترى نفسها.

سألتها: كيف؟

فقالت: إنها تحسُّ بأنها طيف، وأن الطيفَ ليس بحاجة إلى مرآة، لأنه أصفى من أي مرآة، وصورته تجرحه!

أتذكُر، في الأيام القليلة التي لم يكن يُسمع فيها رصاص، في الأيام القليلة التي كان يختفي فيها القنَّاصون، وتنشغل الدبابات بالبحث عن أشياء لا نعرفها، وهي تحدِّق في الهواء بفوهات مدافعها، كانت لميس تصعدُ للسّطح، ترسل بصرَها إلى أبعد مكان يمكن أن تراه، وفي كلِّ مرة كانت تقول، لقد استطاعت اليوم أن ترى أكثر من يوم أمس.

رندة سألتها، وماذا رأيت اليوم. قالت: ليس مُهِمًّا مقارنَةً بالذي سأراه غدًا!!

وكان هذا يحيرنا، وفي اليوم التالي، أسألها أنا، أسألها بنفسي، فتعيد ما قالته.

وهكذا أصبحتْ رندة تصعد للسّطح كي ترى ما تراه لميس.

لكن ما كان يُريحني، أنها بدأت تراك أكثر. فقلتُ لعلّها تنظر للبعيد كي تراك هنا. ويا ريتني لم أقل هذا الكلام أو يخطر ببالي.

***

- هيك، إذن! المسائل وصلتْ إلى هذا الحدّ ولم أكن أعرف!

قلتُ لرندة: كيف لا تكونين صريحةً معي يا رندة. أكان لا بدَّ من أن أعرفَ أمرًا كهذا، مصادفة، من لميس، وأنا استرق السَّمع؟

لم تجب رندة.. وكنت أعرف: ما الذي يمكن أن تقوله؟!

لكنني فاجأتها: لقد اشتريت ثوب الزفاف. وحين رأته طار عقلها: فراحت ترجوني: من شان الله، أعطيني إياه يا خالتي آمنة. من شان الله.

قلت لها: لا، هذا للميس يعني للميس.

فقالت لي: ولكن أنا ليس؟

قلت لها: لا أنتِ رندة. لا تجننيني.

فقالت: خلاص أنا رندة. ولكن ألا تلاحظين أن الفستان صغير؟

- نعم ألاحظ، وهل تعتقدين أنني عمياء؟ ألم أقل لك إن الذين يحبون بعضهم البعض يتحوّلون إلى طيور صغيرة؟!

- لا، لم تقولي هذا الكلام عمّن يحبون بعضهم بعضًا، قلتيه عن أولئك الذين يستشهدون صغارًا.

- منذ متى لم تعودي قادرة على أن تفهميني يا رندة؟ منذ متى؟ بحيث تسألينني سؤالًا كهذا، وهل هناك فرق بين هؤلاء وهؤلاء؟

- لا أعرف. قالت لي. تصوَّر، أن رندة التي تعرف كلَّ شيء، قالت لي لا أعرف!

فقلت لها: لقد عَرَفْتِ الآن.

***

صالح، يا صالح..

لن تعود بحاجة لهواء يهب بعد اليوم..

عندما تأخرَ، دقَّتْ على بابنا

خرجتُ قالت لي آمنة: قد أتأخّر اليوم، عليَّ الذهاب إلى مستشفى الشفاء، هناك أطفال كثيرون، يجب أن أتحدَّث مع أهلهم، وكانت شبه تائهة.

- حين يأتي صالح دعيه عندكم حتى أعود..

وابتعدتْ وهي ممسكة بيد ابنتها..

سألتها: ونادية؟!

نادية سأمرُّ على الحضانة وأحضرها بنفسي، سيكون لديّ وقت كاف.

نعرف كلنا أن صالح تغيَّر بعد أن حدث ما حدث لأبيه. كأنه أدرك بغريزة الابن، هل للابن غريزة كغريزة الأم؟ لم لا، أَوَليس الابن من رحم الأم، من لحمها وروحها؟! كأن صالح أدرك أن أمّه لن تستطيع احتمال ضربة قاتلة أخرى في القلب.

لم يعد يغادر البيت إلا إذا طَلَبَ الإذن منها، وبعد زمن لم يعد يغادره أبدا، لم تعد عيناه تفارقانها، وحين يحسُّ أنها تأخّرت أكثر من اللازم في إحدى الغرفتين، ينهض ليتفقّدها مختلقًا أسبابًا لا تُقنع أحدًا.

- لقد أصبحتُ أشفق عليه. أريده أن يطيعني، ولكن ليس إلى هذا الحدّ! كما لو أن المكان الوحيد الذي كان مستعدًا أن يذهب إليه هو المكان الذي استشهد فيه أبوه، وحين قلنا له: كفى، لم يعد يغادر البيت. أريده أن يخرج، أن يلعب، أن .. وإذا ما اشتهى أن يقذف دوريَّة عسكريّة بعيدة بحجر فليقذفها.

كانت آمنة تقول ذلك لأمّي وتعيده لنا فردًا فردًا وهي حزينة. دون أن تدري أن صالح لا يسعى لإرضائها، بقدر ما بدأ يخاف عليها. كما لو أنه هو الذي لا يريد أن تغيب أمّه عن عينيه..

***

أمي قالت لي: إذا كنتِ رندة فإنك تُعذِّبين نفسك بهذا الولد، ولا أدري إن كنتِ في نفسك تتمنَّين أن يكون صالح أخاك أم يكون شيئًا آخر؟ أم أنك ما زلت تعتقدين أنكِ البنت التي لم تزل تتمنّى الحصول على تلك اللعبة التي اختارتْ أختَها.

لم أفهم ما قالته أمي، في البداية، عن لعبة تختار، لكنني أدركتُ أنها قالت كل هذا الكلام، لأنها قالته من قلبها في لحظة صفاء.

***

كانت في المستشفى،

آمنة كانت في المستشفى، وكان الولد يبكي، الولد الصغير الذي بعثرتْ رصاصةُ الدُّمدم نصفَ عاموده الفقري، وخلَّفته بلا قامة، بلا ساقين يجري بهما، أو يكذب بهما حين يُغِيْرُ على سيارات الجنود ويقول لأمّه: بهما كنتُ ألعب الكرة! كان الولد يبكي خائفًا من أن آمنة ستأخذه من أمه كما أخذته الرّصاصة من اللعب ومطاردة الجنود والتجرؤ حتى على الحواجز.

فجأة ملأت الضجة الممرّات والغرف وغطتْ على صوت الصغير. سألت آمنة الممرِّضةَ التي تقف عند الباب تستطلع ما يدور: ما الذي يحدث؟

- كأنه طفل مُصاب.

- حتى متى يا ربي؟ قالت آمنة.

لكنها بعد قليل نهضتْ، كما لو أنها شخص ينهض من نومه ويسير في نومه.

اختفى بكاء الولد الصغير خلفها فجأة، أحستْ أنها لم تعد تسمع شيئًا.

في نهاية الجموع التي تحمل الولد المصاب سألت: ما الذي حدث؟

رد أحد الفتيان: شهيد.

- كم عمره؟!

- أربعتعشر سنة، خمستعش، أكثر، أقل، ما عادت تفرق!

قالت: الله يصبِّر أمّه.

وعادت للداخل.

على حافة السرير جلستْ، لم يكن الصغير يبكي، الصغير الذي لم تغبْ عنه سوى دقيقة أو أقلّ، اختفى صراخه، وبدا كطفل لن تواصل الرصاصةُ سرقة أجمل ما لديه، طوال حياته، وهو ينظر إليها تفعل ذلك ولا يستطيع شيئًا.

هل سكتَ الطفلُ فعلًا، الطفل الذي كم حبست أمّه دموعها وهي ترجوه أن يوافق على أن تأخذه (خالتو) آمنة إلى المركز والبقاء مع الأطفال، لأن "المركز ليس سوى مدْرسة، مدرسة كالتي كنت تذهبُ إليها".

اختفى صـوت المـرضى، الـزوّار، الأطبـاء، الممرضـات المتنـاثرين فـوق وحول الأسِرَّة المنتشرة في الغرفة الكبيرة.. وثانية وجدتْ آمنةُ نفسها تنهض، تتبع ذلك الضجيج الذي تحوَّل إلى صمت، صمت لم يستطع عمقه أن يمحو آثار خطواته الدامية في الممرّ.

علي باب غرفة الطوارئ، أدركتْهم، شقَّتْ طريقها بصعوبة، وهي تحسّ بأن المسافة بين البوابة والسَّرير هي أطول مسافة تقطعها على قـدميها طـوال عمرهـا. وحـين وصـلتْ.. نظـرتْ إلى وجـه ذلـك الـصَّبي الـذي عـبرت الرصاصةُ رأسه، نظرتْ إلى ملامحه المغطاة بالدَّم.

- هل تعرفينه؟ سألها أحدهم.

هزت رأسها، كما لو أنها تقول لا.. وخرجتْ.

ظلَّت تسير إلى أن وصلتْ، بيتها، بيتنا.

قرعَت الباب، خرجتُ.

قلت لها: أين نادية؟

قالت: نادية؟! مش عارفة.

وقلت لها إن صالح لم يعد.

فقالت لي: أعرف. فهناك في المستشفى ولد يشبهه!

قلت لأُمّي:

كيف كنت تُفَرِّقين بيننا، فقالت لي: لا أعرف. في البداية كنت أعرف، لكنني لم أعد أعرف شيئًا. كلّه مِنْكِنْ. في الأولْ، لم يكن الأمر صعبًا، ولكنه اختلف فيما بعد.

هل كنتِ أنتِ التي خربطت عياراتي، أم أختك، لا أعرف. رندة كانت تصرّ على أنها تريد اسم لميس لأنه أجمل من اسمها. هكذا قالت لي، وبكتْ: لماذا لم تسموني أنا لميس وهي رندة؟!

ورفضت لميس أن تتخلّى عن اسمها. حاولنا أن نُقنعها، كانت صغيرة، أصغر بخمس دقائق، رفضتْ، وعَدْناها بلعبة، بأيّ شيء تشتهيه، مقابل الاسم. رفضت: كيف سأعرف نفسي فيما بعد؟!

قلنا لها: ستعرفينها لأنكِ أنتِ أنتِ.

فقالت: وحين ينادي أحدٌ: لميس. هل أجيب أنا أم تجيب رندة؟ وإذا ما حدثَ لي شيء، إذا متُّ هل سأموت أنا أم رندة؟!

تشبَّثتْ باسمها، كما يتشبَّث رأسها بكتفيها. ولكنني أعـرف أنكـما كنـتما تتبادلان الأسماء. لا تُنكِري!

ولم أكن أُنكِر. لكن واحدة منا خرجت إلى الـسّطح ذلـك اليـوم، ورآهـا القناص، فأطلق رصاصة واحدة.

رصاصة واحدة تكفي أحيانًا وتزيد.

وكلّـما راح أحـد يحـاول الوصـول إليهـا فـوق الـسطح، رأينـا حـوافَّ الإسمنت تتطاير، فأدركنا أن هناك رصاصًا، يأتي من بعيـد، نـراه ولكنـنا لا نسمع صوته، بعد ساعتين استطعنا قطْعَ المسافة التي تفـصلنا عنهـا؛ بعـد ساعتين قطعنا الأمتـار الأربعـة! وجـدنا جـسدها ملقـى وسـط بحـيرة دم صغيرة، وكان اسمها إلى جانبها مُلْقى هناك مثـل عـصفور صـغير؛ حملـتُ الاسم، ونـزلـتُ به، في الوقت الذي كانوا يُنْزِلون الجـسد المثقـوب، الجـسد الذي فتحتْ فيه الرصاصـة نافـذة عميـاء. تلفـتُّ، فوجـدتُ أن آخـر شيء يفكرون فيه هو الاسم، خبأته ، وكانوا يصرخون ويبكـون، وظلّـوا كـذلك إلى أن رآني أحد جيراننا أبكي، وكأنني أبكي عليَّ، حـدَّق في الجثّـة المـسجّاة، وفي أقل من لحظة اندفع السؤال المخيف الـذي أحـال العـالم كلّـه إلى قطعـة يابسة من صمت.

- من التي استشهدت؟ لميس أم رندة؟

التفتتْ إليَّ أمي عبر دموعها، وسألتني: مين يا بنتي؟!

فبقيتُ صامتة.

***

الآن أنهض في الليل أتسلل لتلكَ الغرفة التي طالما جمعتْنـا كلّنـا، الغرفـة التي تُفضي لحوش آمنة، أفتح الدفتر وأقرأ، وأقرأ، حتـى الـصباح، وأدهـش من أننا عشنا هذا الزمان كلّه.

أسير في الشارع.

تمُرّ بي إحدى جاراتنا. تقول لي: صباح الخير يا رندة.

فأقول لها: أنا ميس يا خالتي.

فتقول: لا تؤاخذيني.

وبعد نصف ساعة أو أكثر أراها تعود، هي نفسها، وحين تصل تقول لي: مرحبا يا ميس. كيف حالك؟

فأقول لها: أنا رندة يا خالتي.

أمي أصبحت تخاف عليّ. قالت لي: إذا بقيتِ هكذا ستصبحين مجنونة.

- ولكن لماذا؟ لأنني أريد أن يعرف الناس أنها لم تمت؟!!

فتسألني: من هي التي لم تَمُتْ؟

فأقول لها: وحده صالح الذي كان يعرف، وحده الحبّ، وبمفـردي لـن أستطيع أن أقول. اسأليه!

***

ذات صباح

وقفتْ طائرة في السماء،

حدَّقت في شارعنا،

وبعد قليل ألقت قنبلة..

رأيناها قادمَة، قادمة ببطء شديد، حتى أننا لم نشعر بأن علينا أن نتحرك، أن نبتعد، أو أن نأخذ الأرض منبطحين. ثم صحونا على انفجارها الذي طوَّح بكل شيء إلى الفضاء، وتلفتُّ حولي، لم أر أمي، لم أر نفسي.. لكنني رحتُ أركض صوب ذلك الباب الذي يفضي لحوش آمنة. لم أره، وهكذا عبرته دون أن أُلاحظ ذلك، فوجدتُ نفسي أصطدم بجسد أمامي، لم يكن سوى جسد أمي.

بعد قليل أبصرتُ يديها تطردان الغبار، فرُحْتُ أفعل مثلها، ساعات كثيرة وأنا أطرد ذلك الغبار بعيدًا، دون أن يبتعد..

سمعتُ أصوات أناس يصرخون، قادمين من كلِّ مكان. وحين هدأ كل شيء، واستعدتُ عيني، رأيتُ أشلاءً معلقةً في الهواء، ولم يكن قد تبقَّى من البيت غير شحوب النَّخلتين.

***

الشّاي، جاهز يا خالتي آمنة.

....

غَلَّبِتْ حالي؟! لا، ما فيها غلبة. المهم ديري بالك على نادية..

....

تقولين إنها شاطرة وتستطيع أن ترعى نفسها بنفسها؟

....

طمنتيني.

....

وأنا؟

مثلما قلتُ لكِ في المرّة الأخيرة.

.....

لستِ مُصدّقة، حتى الآن؟

لكنني أقولُ لكِ الصحيح. أمس، أحسست بأن الليل كان مضيئًا، خرجتُ إلى السّطح، ولم أكن خائفة، وحين نظرت، لم أصدق عيني، رأيت الناس في الشوارع مثل قناديل الليل، كانوا حزينين نعم، ولكنهم كانوا مثل قناديل الليل، وكنت أنا نفسي مضيئة وحزينة. تعرفين، خالتي، حين لم نستطع الوصول لأفراحنا المضيئة، يبدو أن حزننا هو الذي أصبح مضيئًا، وإلاّ لكنا انطفأنا كما تقول جدّتي منذ مائة عام.

- .... !

- تقولين إنه حلم كبير؟!! لا لم يكن حلمًا كبيرًا، كان حلمًا لا غير.

- ....

- هذا الصباح طلبتْ أُمّيَ مني أن أكتب لها كلمة (فلسطين).

- .... ؟

- نعم كتبتُها، وحين أصبحتِ الورقةُ بين يديها، فرَّتْ هاربةً مثل طفلة صغيرة، وأغلقت الغرفة على نفسها. وحينما خرجتْ، وبيدها ورقة أخرى مكتوب عليها كلمة (فلسطين)، كانت أكثر حيرة. رجتْني أن أقول لها أيّ ورقة كُتِبَتْ بخطٍّ رندة وأيّ ورقة كُتِبَتْ بخطٍّ لميس. وراحت تبكي. فقلت لها: الصحيح ان الورقتين مكتوبتين بخطٍّ يدي.

فقالت لي: إنتِ مين؟

- .. .. ؟ .. .. ..

- تعتقدين أن علي أن أخبرها بالحقيقة إذن، لأنني إن لم أقلْها الآن فلن أقولها أبدًا؟

- .. ..

- حاضر..

- .. ؟

- أعدكِ، سأخبرها.

في الملهاة وجذورها

لَهَا بالشيء، لهوا: أولع به.

لَهَا، لِـهْيانا عن: إذا سلوتَ عنه وتركت ذكره وإذا غفلت عنه.

ولَـهَت المرأةُ إلى حديث المرأة: أنِست به وأعجبها.

قال تعالى (لاهية قلوبهم) أي متشاغلة عما يُدعَونَ إليه. وقال (وأنت عنه تلهّى) أي تتشاغل.

وتلاهوا: أي لها بعضهم ببعض.

ولهوت به: أحببته.

والإنسان اللاهي إلى الشيء: الذي لا يفارقه. وقال: لاهى الشيء أي داناه وقاربه. ولاهى الغلامُ الفطامَ إذا دنا منه.

واللُّهوْةُ واللُّهْيةُ: العَطِيَّة. وقيل: أفضل العطايا وأجزلها.

(لسان العرب)

إبـراهيم نصرالله

ـ مواليد عمّان من أبوين فلسطينيين أقتلعا من أرضهما عام 1948

صدر له شعرًا:

الخيول على مشارف المدينة 1980 . المطر في الداخل 82. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق 84. نعمان يسترد لونه 84. أناشيد الصباح 84. الفتى النهر والجنرال 87. عواصف القلب 89 .حطب أخضر 91. فضيحة الثعلب 93.الأعمال الشـعرية- مجلد يضم تسعة دواوين 94.شـرفات الخريف 96. كتاب الموت والموتى 97. بسم الأم والإبــن 99. مـرايا الملائكـة2001. حجرة الناي 2007. لو أنني كنت مايسترو2008

الروايــات:

براري الحُمّى 1985 . الأمواج البرية 88 .عَــوْ 90 . مجرد 2 فقط 92. حارس المدينة الضائعة 98. شرفة الهذيان 2005. شرفة رجل الثلج 2009

الملهاة الفلسطينية : زمن الخيول البيضاء، طفل الممحاة، طيور الحذر، زيتون الشوارع، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى.

كـتب أُخرى:

- هزائم المنتصرين - السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق 2000
- الفن والفنان - كتابات جبرا إبراهيم جبرا في الفن التشكيلي 2000
- ديـواني – شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم 2002
- السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق 2006
- صور الوجود ـ السينما تتأمل 2008
- ترجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنماركية، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، الإيطالية..
- أقام ثلاثة معارض فوتوغرافية وشارك في معرض (كتّاب يرسمون) معرض مشترك لثلاثة كتّاب- عمان 1993
- نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية من بينها:

جائزة عرار للشعر 1991 .جائزة تيسير سبول للرواية 1994

جائزة سلـطان العـويس للشـعر العربي 1997

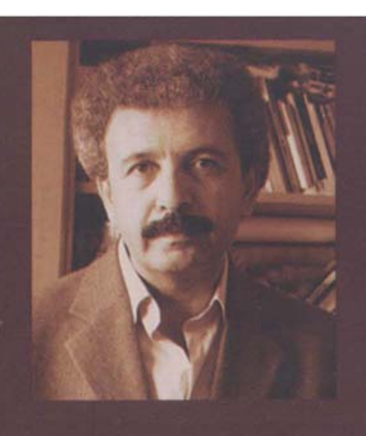
موقع الكاتب على شبكة الإنترنت

www.ibrahimnasrallah.com

الملهاة الفلسطينية

يتكـون مشـروع الملهـاة الفلسطينيـة، الـذي بدأ الشاعـر والروائي إبراهيم نصـر الله العمل عليه منـذ عام 1985 مـن مجموعة روايـات، لكل رواية استقلالهـا التـام عـن الروايـات الأخـرى، علـى مستـوى الشخصيـات والبنـاء الفنـي والفـترة الزمنيـة؛ لكـن المشروع يسعى لرسـم صورة من الداخـل للحيـاة الفلسطينيـة، إنسانيـاً وثقافيـاً ووطنيـاً؛ وبصـدور رواية (قناديـل ملك الجليل) فإن روايات الملهاة الفلسطينية تغطي حوالي 250 عاماً من التاريخ الفلسطيني الحديث، منذ نهايات القـرن السابـع عشـر، حتـى مـا بعـد الانتفاضة الفلسطينية الثانية.

يمكـن للقـارئ أن يبدأ بالرواية التـي يريد، ولكن إذا مـا أراد القـراءة حسـب الفـترة التاريخيـة، صعوداً، فيكون ترتيب القراءة على النحو التالي: **قناديـل ملك الجليـل، زمن الخيول البيضـاء، طفل الممحاة، طيور الحذر، زيتون الشوارع، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى.**



الملهاة الفلسطينية

قناديل ملك الجليل

زمن الخيول البيضاء

طفل الممحاة

طيور الحذر

زيتون الشوارع

أعراس آمنة

تحت شمس الضحى.

IBRAHIM NASRALLAH
SAFE WEDDINGS



الصديق العزيز إبراهيم نصر الله

تحيات من القدس

كأنك تعيش معنا، تضع يدك على وجعنا وهمومنا. أما الشيء الرائع أيضاً فهو أن تكتب عن مرحلة ما زلنا نعيشها.

لقد وقعتَ على اختيار صحيح حينما قررت أن تكتب (الملهاة الفلسطينية) من جوانب عديدة مختلفة. ستكون بعد وقت ليس ببعيد رائداً في هذا الميدان، وستكون رواياتك المتعاقبة بمثابة ملحمة معاصرة للشعب الفلسطيني في إطار فني متجدد باستمرار.

في روايتك (أعراس آمنة): اخترت موضوعاً صعباً، هو الموت والشهادة، وهو موضوع يغري بالعويل والبكاء والندب والميلودراما، لكنك ابتعدت بكل براعة عن كل ذلك، ورحتَ تستبطن الحالة الفلسطينية التي تقع بين حدّي الفرح والحزن، العرس والجنازة، ورحت تحاور الموضوع بعمق وذكاء، لتضيء جانباً جديداً في تجربة الفلسطينيين.

روايتك هذه تمضي قُدماً بسلاسة واقتدار، وإسناد البطولة والسرد للنساء أضفى على الرواية رونقاً وبهاء: رند ولميس وآمنة والجدة و(الملاكان) شخصيات لا تُنسى. وكذلك الأمر في (تحت شمس الضحى)، فقد نجحت في تصوير أزمة هذه المرحلة الملتبسة، وفي رصد شخصية الدكتور، وهو آفة من آفاتنا الراهنة. هذا الدكتور نعرفه تماماً هنا، لقد أعطيت لشخوص رواياتك حياة مجسّدة على نحو مقنع إذ لا يمكن نسيان الطفلين نمر، ونعمان. ولا يمكن نسيان أم الوليد، نورة، نعيم، ياسين، سليم، والدكتور. وكذلك وردة، إنها شخصية نسائية ظريفة وخصبة.

إنك تتحدث عنا بأسلوب أخاذ، وترانا بطريقة جميلة وصائبة؛ وأنا أرى أنك تُكمل ما لم يستطع إكماله غسان كنفاني، متمنياً لك طول العمر لكي تنجز مشروعك الروائي الكبير.

أخوك

محمود شقير

القدس – فلسطين

ISBN 978-9953-87-625-2



